خلاصة العرفان

انما هي ذات و طاقة تنفقها. و الامداد المستمر بالطاقة هو عذاب الذات. و كل عمل جسماني او عقلي او روحاني هو مجرد لعب بهذه الطاقة و انما هم منافذ لانفاقها. هذا الاجمال فلنذكر شئ من التفصيل.

هذه "الانا" التي يشعر كل فرد منا بها هي في الواقع ليست "ذات" منفصلة مستقلة, و انما هي نوع من الوعي. و لذلك عندما نتكلم في انفسنا و نسمع صوتنا فان هذا الوعي هو من خلق المجتمع و التجربة الشخصية للفرد في الحياة, و لذلك انا اسمع نفسي اتكلم بالعربية و انت تسمع نفسك تتكلم بالفرنسية و ذاك يسمع نفسه يتكلم بالصينية. و من ناحية اخرى, قبل عشر سنوات كنت اسمع نفسي اتكلم بطريقة معينة و بمستوى علمي معين و من نظرة معينة, ثم بعد ان تغيرت طريقتي و تغير مستواي المعرفي و تغيرت وجهة نظري اصبح هذا الوعي له نغمة اخرى و له كلام اخر و له شعور اخر. فالوعي ليس ثابتا, بل هو دائم التغير. فلا يوجد كينونة في الانسان. انما هو كمثل الطين يتشكل بحسب يدا المحيط و التجربة الشخصية. هذا من حيث الباطن. و اما من حيث الجسم فالأمر أظهر, اذ الجسم دائم التغير و سيؤول الى الموت و الانحلال حتما. فاذن, لا يوجد للانسان "ذات". اذ هو دائم التغير, و قابلية التغير فيه طبيعية لا يمكن ازالتها. فلا يوجد "انا", و لكن قد نقول ذلك مجازا, او "انا" الان, و قد تكون "انا" بعد قليل غير انا الان. فالانا وهم و صنم. هو تصنيم لشئ لا ثبوت فيه. و على ذلك فأنت غير موجود بمعنى الثبات و الاستقلالية, و حتى هذه الذاتية التي تشعر بها في نفسك هي مجرد تخيل. و انما خلق هذا التخيل لاحقا بتأثير المجتمع و بتأثير الجسم المفارق للاجسام ظاهرا. فأصبحت تشعر ان لك ذاتا مفارقة للذوات قياسا على جسمك المفارق للأجسام. و الحقيقة ان كل شئ في تغير دائم, و لا يوجد ثبات مطلقا.

و يوجد مدد من الطاقة في انفسنا, قد يكون لهذه الطاقة قدر معين كمثل الطاقة في البطارية التي في جهاز التحكم, و قد تكون طاقة متجددة كمثل الكهرباء التي تدخل في الجهاز الموصول بمصدرها. المهم انه يوجد طاقة معينة في النفس. و هذه الطاقة, و التي يظهر انها متجددة اذ نرى الانسان يعمل و يتعب ثم ينام و يستيقظ و يأكل فيرجع له نشاطه, فيظهر ان النوم و الطعام هما مصدر تجديد الطاقة كأصل. و للرياضة دور في ذلك ايضا, سواء كانت رياضة جسمانية فنحن نرى كيف ان نشاط الرياضي اعلى من نشاط الخامل الكسول. و كذلك الرياضة العقلية كالتفكير و الجدل و القراءة , فاننا نرى عقل المفكر اكثر قوة من عقل العامي. و كذلك التأمل السكوني يظهر انه يبعث طاقة في النفس, و اني ارى ان التأمل في اليقظة انما هو درجة من درجات النوم. و كما قيل: النوم احسن تامل. فقد نلحقه به من باب الاجمال و التضمين, و قد نفرده وحده من باب العقل و التفصيل. فاذن منابع

الطاقة في الانسان هي النوم و الطعام و الرياضة (جسمانية و عقلية) و التأمل. و كما تلاحظ فان الرياضة و التأمل ليسا من الامور المشهورة التي يمارسها كل الناس. و القدر المتيقن الذي يمارسه كل الأحياء هما النوم و الطعام.

فالطاقة ملازمة لكل كائن حي. و انما بها اصبح متحققا و حيا. و يظهر ان كل عمل الكائنات انما هو انفاق هذه الطاقة, طوعا او كرها, انفاقها في امر يعود عليهم بالنفع او في امر عقيم. و كل الاعمال الجسمانية و الفكرية و الروحية هي مواضع هذا الانفاق. فالانسان لا يرغب في هذه الاعمال و لكنه يرغب في الانفاق, يرغب في التخلص من هذه الكمية الموجودة فيه. و من هنا اقول انها منشأ العذاب, و مواضع الانفاق لا تهم جوهريا و انما هي نوع من اللعب و اللهو.

الانفاق طوعا كأن تتكلم في امور فكرية او عبثية, او تمارس الرياضة. و الانفاق كرها كأن ترى حلما او تشعر بشعور كئيب يتسلط عليك من حيث لا تحتسب. و الانفاق في موضع يعود عليك بشئ هو كالقراءة التي تعود عليك بالأفكار الجديدة فالقراءة بحد ذاتها موضع انفاق و تخلص من طاقة و هي ايضا سبب لتوليد طاقة جديدة فيك. و الانفاق في موضع ميت و رحم عقيم كأن تشعر بالاكتئاب احيانا و لا تستفيد من ذلك الا الشعور بالتعاسة, فالشعور بالخوف و التعاسة منفذ كبير و سريع لكميات كبيرة من الطاقة, و لذلك يعشقه الناس عامة. بالطبع هذه مجرد امثلة , و كل مثال منها يمكن ان يتحول الى خانة اخرى. فالحلم قد يكون انفاق كرها و عقيم و قد يكون انفاق طوعي و مفيد, و لكن يغلب عليه صفة الاكراه لانك لا تصمم الحلم بوعي و انما هو عمل اللاوعي كمثل عمل المعدة, فانت تأكل بوعي و لكن عمليات الهضم و التحليل و الافرازات هذه تتم بغير وعي منك. فخلاصة هذين القسمين: طوعا و كرها, في موضع عقيم و موضع مفيد, انهما "انفاق" للطاقة النفسية و الجسمية. و الاصل في الطاقة انها نفسية, الا ترى ذو الجسم السليم اذا اكتئب كيف يخمل و يتكاسل. و كم من قوي النفس بجسم ضعيف و لكنه يقوم باعمال جليلة.

و على ذلك, الانفاق حقيقة واقعية لا يستطيع احد كائنا من كان ان يتخلص منها. استحالة مطلقة. ان لم تنفق و انت مستيقظ فستنفق غصبا عنك و انت نائم. و بديهي انه لا يستطيع احد ان يكون مستيقظا و لا ينفق اي مقدار من طاقته. و من هذا الانفاق تتولد كل الاعمال الانسانية , و بسبب هذا الانفاق نشأت كل الحروب و الخصومات و الاختلافات و الاحتفالات و الافراح و الألعاب و الكتب و المذاهب و الاديان و الدول و المباني و المطاعم و الازواج و الدعارة و المخدرات و الهوايات و باختصار: كل شئ.

فأصل كل شئ هو ضرورة انفاق الطاقة. و لا عبرة بعد ذلك في موضع هذا الانفاق, انما هو امر ثانوي. و من حيثية الضرورة هذه يتساوى كل الناس. و من حيثية كمية الطاقة المتوفرة لكل فرد و من حيثية مواضع الانفاق (الطوعي و الكرهي و العقيم و المفيد) يختلف الناس. فالامداد الأساسي متوفر للكل, و لكن "اين ستنفق" هنا يختلف الناس, "ليبلوكم في ما اتاكم". و لكن حيث ان كمية الطاقة و توفر المواضع الطوعية المفيدة ليسا متواجدين عند كل الناس بنفس المقدار, بل قد يجبر الانسان ان ينفق كرها حيث لا يتوفر الطوع, و قد ينفق في موضع عقيم لتعذر الوصول الى الموضع السليم, فان هذا يدل على احد امرين: اما ان كل الناس متساوية أيا كان موضع انفاقها. و اما ان الحساب يكون بحسب ما توفر للانسان, و يظهر ان القرءان يميل الى الرأي الثاني "لا يكلف الله نفسا الا ما اتاها" و "لا يكلف الله نفسا الا وسعها". و في الواقع ان قول القرءان هذا لا يعبر عن عقيدة بقدر ما يعبر عن حقيقة. فواقعا ان النفس لا يمكن اصلا ان تكلف الا بحسب وسعها و طاقتها و ما يتوفر لها. فالأمر ليس اختياري اصلا. مثلا, عندما تأكل طبق معين من الطعام, فان ما ينتجه جسمك و يفرزه هو من الامور الجبرية و ليس لك حرية فيها, يوجد نظام معين للجسم تاخذ هذه الامور مجراها فيه بغض النظر عن وعيك بها او اختيارك لها. و في امور النفس ايضا. فمجموعة من الذكريات و التجارب و الرغبات و الضرورات تتداخل و تكون نفسيتك في اللحظة الحالية. و هذا التغير مستمر. و هذا التفاعل قائم. و مقدار الضرورات المحيطة بالانسان اكثر بكثير من مقدار الاختيارات المتوفرة له. فاذا تخلينا عن عقائدنا و الافكار المسبقة عن هذه المسائل, و تجردنا قدر المستطاع للنظر, فان النتيجة ستكون ان كل كائن يريد ان ينفق طاقته و يتخلص منها ليعود الى السكينة او العدمية ان شئت. و كل ما عدا هذه الحقيقة هو صور و فروع لها.

لنرجع قليلا الى موضوع "الذات" التي نفينا وجودها و قلنا انها عبارة عن مجموع الحالة العقلية و الجسمانية و الروحية (على فرض وجود مثل هذه الروحانيات), في لحظة ما. فالذات ثمرة تفاعل عقل الانسان بجسمه و محيطه في لحظة ما. فاذا جمعنا العقل و الجسم تحت مسى واحد هو "النفس" و اذا عبرنا عن مكان و زمان وجود هذه النفس تحت مسمى واحد هو "المحيط", فاننا نستطيع ان نصوغ معادلة تقول: الذات = النفس + المحيط.

الذات = النفس + المحيط.

فهذه المعادلة تقتضي ان غياب العقل و الاحساس بالجسم, بالاضافة الى غياب الوعي بالزمان و المكان, سيؤدي الى تلاشي الذات. فهل هذا صحيح؟ هو صحيح تماما, و كلنا له تجربة بل الاف التجارب المباشرة مع هذه الحقيقة

الكبرى. لا يوجد كائن حي بيننا الا و هو يعلم صدق هذه الحقيقة مباشرة و بدون وسيط. ستقول: و اين هذه التجربة المباشرة؟ اقول: النوم! في ذروة النوم!

كما يعرف العلماء و يتذوق الناس, فان للنوم مراحل. في مراحل منها يشعر الانسان بذاته كمرحلة الحلم , او في المراحل الاولى للنوم قبل الغيبة, و ايضا في المراحل النهائية قبل الاستيقاظ التام. في هذه المراحل نرى اننا نشعر بذاتنا الى حد ما, و ذلك اننا نشعر بعقولنا او اننا نتخيل شئ او ان صورتنا و نفسيتنا في عالم ما (عالم الحلم) و هو عالم يوحي للنفس بوجود مكان و زمان (مسرح الحلم). فالى حد ما يوجد شعور بالنفس (عقلا و جسما, اذ كما نجرب كلنا اننا احيانا نتكلم في الحلم و نرى اجسامنا تتحرك مثلا), و يوجد شعور بالمحيط (مكانا و زمانا, حيث يتم الحلم في مساحة تشبه هذا العالم من حيث الخصائص الذاتية كالمكانية و الزمانية و ان اختلفت في الخصائص الأخرى). و من تفاعل النفس مع المحيط هذا نشعر بذاتنا, و كأن لنا تحققا منفصلا عن عالم الحلم و مسرحه. فأدنى شعور بالعقل او بالجسم سيؤدي الى شعور بالذات, و ادنى شعور بمكان و زمان سيؤدي الى شعور بالذات. فاذا بلغ الشعور بالنفس و المحيط قمته كما في اليقظة فان الشعور بالذات يكون على اشده.

و لكن يوجد في النوم مرحلة تسمى "ذروة النوم", فيمكن تشبيه مراحل النوم بالجبل. حيث يكون قاع الجبل هو قمة الاستيقاظ, و قمة الجبل هي ذروة النوم. و مراحل التحول من قمة اليقظة الى ذروة النوم و التحول من ذروة النوم الى قمة اليقظة مرة اخرى تشبه صعود الجبل و نزوله. و كما يقول علماء الشأن و نجربه كلنا فان: بلوغ ذروة النوم هو الذي يخلق الفائدة القصوى للنوم. و البقاء في هذه الذروة انما هو لمدة قصيرة بالنسبة لمراحل النوم الاخرى-عموما. و اشد الناس سعادة في نومه هو الذي تكون مدة بقاؤه في هذه الذروة أطول مدة ممكنة. و الحلم هو حارس النوم, فقد تطرأ منبهات نفسية او جسمانية تؤدي الى اليقظة, فتقوم المنطقة النفسية المسؤولة عن حراسة النوم بانشاء او التسبب في نشوء حلم, و هذا الحلم يكون تحقيق للرغبة التي قامت بهذا التنبيه و الازعاج المحتمل. على اية حال, ليس هنا مجال تفصيل نظرية الاحلام فنكتفي بهذا القدر المناسب للمقام. فكما نلاحظ و نجرب, فان في مرحلة معينة من النوم (الذروة) حيث يغيب احساسنا بعقولنا حيث لا فكر و لا تخيل و لا حلم و لا شعور برغبة, و يغيب احساسنا بجسمنا تماما, و حيث تنقطع صلتنا الواعية بالمكان و الزمان, فاننا نفنى تماما و لا تكون لنا اي ذاتية مطلقا. و هذا هو عين ما تقوله المعادلة , فان غياب النفس و المحيط يعني انعدام الذات, كما ان الشعور بالنفس و المحيط يعني وجود الذات. فاذن الذات ليست الا انعكاسا مؤقتا للنفس و المحيط. و عندما نستعمل كلمات مثل "انت تشعر" او "انت تفعل" مما يشعر بوجود ذات منفصلة مستقلة عن النفس و المحيط, فان هذا ليس حقيقة, و انما هو من لوازم اللغة, فاللغة تخلق الكثير من الاوهام ان لم نتجاوز اساليبها احيانا و نحاكم لوازمها الى الواقع. و هل اللغة اصلا الا رموز على واقع مفترض, ثم من هذا الاصل اصبحت اللغة تخلق واقعا جديدا و تصوره للخيال على

انه واقع فعلا او ممكن ان يقع. فاستعمال الضمائر التي تشعر بالذاتية المفارقة هو من لوازم اللغة ليس الا. و الا في الواقع فان هذا غير صحيح. و لا ننسى ان اللغة وضعت من اناس ايقاظ استعملوا حواسهم النفسية و تأثروا بالمحيط . و من هنا فان شعورهم بالذاتية المفارقة (الوهمية) كان حاضرا حين وضعهم للغة. و لذلك لا نستغرب من ضرورة وجود ضمائر الذات في اللغة. اذ وضعت اللغة من قبل سكارى!

فان كانت الراحة التامة , او الرضا التام حيث لا رغبة لتحقق و لا مصيبة لتزال و لا محيط ليراعى و يخضع له, ان كان هذا "الرضا" فهو في ذروة النوم. و ان كانت الذات بطاقتها الواجبة الانفاق هي مضادة لهذا الرضا ووسيلة للرجوع اليه, فاذن يمكن ان نصوغ معادلة اخرى تقول:

السعادة = الذات – الطاقة.

و بفناء الطاقة تفنى الذات, و بفناء الذات يكون الرضا. كما في النوم, و لكن بدون عودة لليقظة بعد ذلك. فهي بقاء على قمة الجبل المقدس من النفس و المحيط. و لنسم هذه الحالة "الله".

و من هنا نفهم ان كل اعمال الناس لها هدف واحد, سواء شعروا او لم يشعروا, و هذا الهدف هو الرجوع الى الله. فان كانت كل الاعمال انما هي لانفاق الطاقة, و ان كان التخلص من الطاقة يعني فناء الذات و الذي يعني الكينونة في الله, فاذن كل الاعمال لها غاية واحدة و هي الرجوع الى الله.

و اذا جمعنا النفس و المحيط تحت مسى واحد و هو "الحياة",و سمينا حالة فناء الذات كما في ذروة النوم "الموت", فان النتيجة تكون ان الحياة عذاب, و الموت سعادة. و كل نوم هو موت مصغر. ففي الموت النهائي لا يوجد المراحل التي يخلقها وجود العقل و الجسم (و على فرض ان العقل هو عمل الدماغ مثلا), فالموت المعروف وصول الى الذروة مباشرة, و لا عودة بعد ذلك الى الجسم و لوازمه من عقل و محيط. و لكن في النوم يوجد مراحل يجب ان تطوى قبل الوصول الى الذروة, و يوجد هبوط من الجبل بعد بلوغ القمة. ثم تعود الكرة مرة اخرى. و هكذا ما دمنا احياء نظل ندور بين الحياةو الموت (في النوم). و اذا اعتبرنا ان "الشيطان" هو رمز العذاب , و "الله" رمز السعادة, فان هذا يعني اننا ما دمنا احياء فاننا نتقلب بين الله و الشيطان, لا الى هذا و لا الى هذا. ثم مع الموت يرجع الكل الى الله. و اذا اعتبرنا ان جهنم رمز العذاب, و الجنة رمز السعادة, فان الحياة تكون جهنم و الموت هو الجنة. مهما اختلفت التسميات و الرموز, فان الحقيقة مشهودة للكل. و لا نريد ان نختلق حربا بسبب الاسماء كما يفعل الاغبياء. بل نشهد الحق كما يفعل العلماء.

و الان نأتي الى سؤال عظيم و تداعياته و لوازمه اعظم: كيف نكسر هذه الدائرة بين السعادة و العذاب؟ لا يوجد الا اجابة واحدة : بالموت! و لكن هنا سؤال اخر: هل هذا يعني ان الانتحار هو السبيل الى ذلك؟ الجواب: يوجد طريقين لا ثالث لهما, اما ان تتخلى عن هذه الحياة اراديا (ما يسمى انتحار) و اما ان تمارس الحياة و تتقلب و تفرح و تتعذب ثم تخرج من هذه الدائرة جبرا حين يفرض عليك الموت المعروف. فالاول سبيل اختيار و الثاني سبيل اضطرار, و كل راجع الى الواحد القهار.

يوجد رأي يقول ان الذي لا يدع الحياة اختياريا سيظل يرجع الى الحياة مرة اخرى الى ان يختار الخروج منها اراديا. و هذا الرأي في نظري انه اسئ فهمه كثيرا من قبل الاكثرية. فهذا الرأي يقصد ان دورة الحياة و الموت , و التي شرحناها سابقا, و هي التقلب بين اليقظة و النوم, ستظل فيها الى ان تخرج من الحياة بالموت. فهي لا تعني ان للانسان ذات مفارقة او روح كما يقول البعض, و ان هذه الروح ستخرج من الجسم عند الموت المعروف ثم سترجع في جسم اخر الى اخر القصة, لا , و ان كان هذا هو القصد فهو تكهن و رجم بالغيب. القصد المقبول هو انك ما دمت حاضرا في النفس و المحيط, اي الذات, طالما انك تشعر بانك ذات مفارقة , فان هذا سيكون سبب عذاب. و لن تتخلص منه الا عند الموت حيث تفنى هذه الاعتبارات الوهمية المؤقتة.

فخلاصة كل شئ هي هذه: انت في عذاب ما دمت حيا, افعل ماتشاء, و لن يكون خلاص الا بالموت, و ما ذروة النوم الا تذوق لتلك الحالة, و رشحات من رائحتها الطيبة. من الناس من يستعجل الى الموت, و من الناس من يثّاقل الى الارض. و أيا كان الاختيار, فانا لله و انا اليه راجعون.

(العرفان دين الأديان)

أنت تحقيق كل رغباتنا,

أنت اجابة كل تساؤلاتنا,

أنت دواء كل أمراضنا,

أنت الفاصل بين كل اختلافاتنا,

أنت جوهر كل سعينا,

أيها العشق!

"كل من عليها فان, و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الاكرام"

العشق الالهي هو الدين الوحيد, هو المذهب الوحيد, هو الطائفة الوحيدة , و يجب أن يكون كذلك, و سيكون كذلك "ليظهره على الدين كله و لو كره" المحجوبون.اذ كل ما دون ذلك انما هو صنم و جهل و غفلة و لو كان ما كان.

ذات الله هي النار الكبرى التي لا يتصل بها الا الأشقى, الذي أشقاه النظر في أصنام الأرض, و اوثان السماء, فذهب الى أصنام الارض و جعلهم جذذا و جعلهم الاسفلين, و ذهب الى أوثان السماء و قال لهم "لا أحب الافلين", ثم بتكسير أصنام الجسم و أوثان الملكوت و الفكر, بعد سعي شاق و طويل, و جهاد للنفس و قتل لها, يصل بعد ذلك الى مقام الوحدة "اني وجهت وجهي للذي فطر السموت و الأرض حنيفا و ما انا من المشركين".

الناس ثلاثة: فأهل الجسم هم أهل الارض و اسفل سافلين الذين ليس لهم الا التعلق الجهنمي بالظواهر الدنيوية, فأغلب أو كل رغباتهم و توجههم متعلق بهذه الظواهر من لعب و لهو و زينة و تفاخر و تكاثر في الأمول و الأولد, كل ذلك سعيا للشعور بالكبرياء النفسي عن طريق الاتصال برابط الملكية بهذه الامور و الاستزادة منها, و بالطبع

فان التجربة و الخبرة و التاريخ و المشاهدة و السماع كلها تشهد أن هذا السعي شقي في أوله و فاشل في وسطه و سيكون حطاما في نهايته, و لن يحصل صاحبه الا شذرات من اللذة هنا و هناك في مقابل طوفان من العذاب أثناء ذلك. و بسبب هذا الشقاء و النقص الدائم المصاحب لهذا الطور الظاهري الجسماني, فان من الناس من يطلب أمرا أكبر منه, فيتكون فيه الاستعداد لبلوغ طور أعلى منه و هو..

طور أهل الفكر و العقل و البحوث العلمية في الافاق و الأنفس, و أحيانا ما وراءهما بقدر الاستطاعة العقلية للدماغ البشري, و هم أهل السماء. و هؤلاء خير من سابقيهم بكثير, و لكن مع ذلك , فان ظاهرة "الافول" المصاحبة للذة الفكرية و التعلقات العلمية لابد أن تصيب صاحبها بالاحباط أيضا. اذ انه حتى أهل السماء يقومون باللعب و اللهو و يتخذون الزينة و يفاخر بعضهم بعضا بأن فكري أحسن من فكرك, و منهجي خير من منهجك, و يطلبون الاستزادة من المال العقلي و الأولاد الذين هم الأفكار العقلية التي تتولد فيه من طول التفكير و البناء و الجدل. فأهل السماء مثل أهل الارض في الجوهر الا أن الاختلاف بينهما في الصور. فكلاهما يرغب في التكاثر في الامول, هذا يطلب المال الجسماني, و ذاك يطلب المال الفكري. و لذلك فان ما يصاحب أهل الدنيا من شقاء هو أيضا يصاحب أهل السماء الا أنه ألطف و أقل شدة في الغالب. و لذلك عبر عنه العاشق الكامل بقوله "لا أحب الافلين" و لم يقل "اني اكره الافلين" , و أما عن أصنام الأرض لم يقل "لا أحب التماثيل" و لكن قال "انهم عدو لي". و مقدار ردة الفعل هو بحسب مقدار الفعل. و مقدار العذاب الذي يجلبه التعلق الجوهري بالظاهر الجسماني أكثر بكثير جدا من العذاب الذي يجلبه التعلق الجوهري بالأمور الفكرية. و الفكر و البحوث العلمية و الجدل أيضا لا تحقق ذات الانسان بالكامل, بل و لا تكاد. اذ انك لن تعلم الا أمور محدودة مهما سعيت, فحياة واحدة لا تكفي في أن تعلم كل شئ عن كل شئ. و من هنا كانت الحكمة هي أن: تتعلم شئ عن كل شئ, و أن تتعلم كل شئ عن شئ. فمع طول اجتناب الأصنام الأرضية و الحيوة الدنيا, و مع طول الاعتكاف على نور العقل و المسائل العلمية على اختلافها, فان القلب الطاهر و الساعي لله, سينظر في عين الأوثان السماوية على اختلافها من كواكب البحوث البشرية, الى أقمار الرموز الدينية و العلمية, الى شمس الملكوت العليا, و يقول "لا أحب الافلين" , و عندها سيكون القلب قد وصل الى الطور الأعلى للاستعداد الروحاني و هو ...

طور سيناء العشق, الذي قيل لصاحبه "أن بورك من في النار" و النار هي ذات الله, و" من في النار" هو قلب العاشق الموسوي الذي يحترق بلهيب الهوية المتعالية "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن", و لذلك وصف ذاته المقدسة بقوله "كل شئ هالك الا وجهه" و معلوم أن الذي يدخل في النار يهلك و لا يبقى الا النار في العرف الاعتيادي. و هؤلاء هم أهل الذكر, "الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم". و هو مقام "اني وجهت وجهي للذي فطر السموت و الأرض" , مقام العلو الابرهيمي. و لذلك يقال لموسى "لا تخف انك أنت الاعلى", و

لذلك يقال لكل من يسلك هذا السبيل من جماعة العارفين "و أنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين". فان كان الجسم محدودا, و كان الفكر محدودا, فان العشق هو النفس اللانهائية الجامعة لكل شئ, بل هي عين كل شئ.

و بعد تحقيق هذا المقام يتحول الانسان, فتتبدل أرض قلبه الى أرض جديدة, و سماء عقله كذلك. و عندها سيرى الله قبل كل شئ, و مع كل شئ, و في كل شئ, و بعد كل شئ. و هذه هي الحياة التي قيل فيها "و ان الدار الاخرة لهي الحيوان" اذ الحياة الهية, و هي الحياة الوحيدة و ما عداها ميت أو في حكم الميت و ان كان يمشي و يتنفس, هذه الحياة الالهية تملأ كل شئ في وجود الانسان, بل عندها لن يكون "انسان" بالمعنى الحصري, و لكن سيكون قلب سليم يتجلى فيه كل شئ و يقبل كل صورة في الأعماق. و سر ذلك أن العشق هو جوهر كل شئ. و كل ما عداه صور له. فكما أن العشق هو جوهر كل الصور, فكذلك كل الصور تأويلها هو العشق. و من هنا نصل الى معنى كون العشق هو "الفاصل بين كل اختلافاتنا".

ما هي الاختلافات الدينية مثلا؟ هي اما بسبب طقوس جسمانية, أو عقائد عقلية, أو رموز انسانية. فمثلا, من الناس من يصلي و هو متوجه الى مكعب حجري و منهم من يصلي الى صليب خشبي. و من الناس من يعتقد أن الاله اسمه "الله" و منهم من يعتقد أن اسمه هو "فيشنو" . و من الناس من يرى أن قدوة الانسان يجب أن تكون "علي بن ابي طالب" و منهم من يرى أنه "اوشو". و غير ذلك من اختلافات مشهورة-للأسف. و اذا نظرنا الى الطقوس فاننا نستطيع أن نراها كرموز على أمور العشق, و اذا نظرنا الى العقائد فكذلك نستطيع ذلك, و اذا نظرنا الى الرموز الانسانية فاننا نستطيع أن نقوم بذلك أيضا. و اذا استعملنا هذا المفتاح في تأويل هذه الأمور فاننا سنرى أن العشق الالهي هو العين التي يستقي منها كل هؤلاء, حتى ان لم يعترفوا بذلك. و من هنا يقوم الرباني جلال الدين الرومي باستعمال كل أنواع القصص التي تبدو في ظاهرها انها دنيوية بحتة ليصبغها بصبغة العشق. و بعد هذا تكون كل الأعمال و الأفكار على اختلافها انما تحكي عن شئ واحد و هو الله. و لذلك قيل " فلله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله". حتى عمل العاهرات في المراقص له تأويل عرفاني يجعله يرتفع من كونه في أسفل سافلين الى أرقى مراتب عليين. و هذا لا يعني اننا ندعو الى استمرار هذا العمل بالضرورة, و لكن عندما ينتشر هذا التأويل بين العاهرات و الناس, فان النقص الذي يشعرون به سيزول , و احتقار الناس لهن سيزول الى حد ما, و عندما يكون الله سبب لكشف السوء, فان المسئ سيزداد حبا لله و تعلقا به, و عندها سيرتقي درجة فدرجة الى التخلي عن السوء. فعلاج السوء ليس بالوعظ الأجوف, و لا بالتخويف الذي يخلق أمراضا أكثر من التي كان السوء يخلقها, و انما باظهار وجه الله في هذا العمل أو هذه الفكرة, و بهذا القبول لهذا العمل و الفكرة فانها تصبح في صف عباد الله و مؤيدة لكلام الله, و بهذا ينجذب أصحابها لله. و لذلك لما مات جلال الدين

الرومي حضر جنازته و بكى عليه من اتباع كل الملل, و الى يومنا هذا فان المثنوي المعنوي ينتشر في كل الأوساط, حتى بين الملحدين قد تراه منشورا. لا أحد يرفض العشق, استحالة, اذا رفضه فانه ليس العشق أصلا.

في الحيوة الدنيا و عند اهل الفكر, فان الاقصاء و رفض الاخرين هو الأصل. و لكن عند أهل الذكر و العشق فان قبول الاخرين هو الأصل. فمثلا, عند أهل الدنيا ترى المترفين يرفضون الذين لايملكون مالا مثلهم, و يسموهم "الأراذل" و يحتقرونهم. و عند اهل الفكر و العقائد فان أصحاب العقائد المخالفة ليس فقط مرفوضين و لكن قد يقتلوهم أيضا و يسعون الى قتلهم, سواء جسمانيا أم فكريا, فنريد أن نثبت ان أفكارنا كلها حق و أفكار الاخر كلها باطل. و هذه هي المناظرات و المجادلات, و لا شك أن لهذه محاسن في دائرة معينة حيث ان الجدل النقدي يقوي الأفكار و يوسعها. لكن ضرر هذه الحياة أكبر من نفعها, فترى أهل كل ديانة و طائفة يفترقون عن الاخرين قدر الامكان, في لعبهم و لهوهم و زينتهم و معيار تفاخرهم و في جمعهم و غير ذلك. فالأصل هو أن ننظر في الناس هل هم مثلنا أو لنا معهم مصلحة معينة دنيوية أو عقائدية, فان كانت الاجابة لا فيجب أن نرفضهم. و لذلك يكون أكثر الناس متفرقين و متعادين , وهو مصداق "و يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم باس بعض". و أما في حياة العشاق فان قبول الكل هو الأصل و القاعدة, اذ الكل مظهر لوجه المعشوق "فأينما تولوا فثم وجه الله" و هل سنرفض الله!! فلذلك نرى مثلا أن الرباني حافظ الشيرازي لسان الغيب يفتتح ديوانه الشعري العظيم بقوله "ألا يا ايها الساقي أدر كأسا و ناولها" و قد لامه الناس على اقتباسه هذا البيت من يزيد بن معاوية "الخبيث بن الخبيث" , و لما سألوه في ذلك قال "ان مال الكافر حلال للمسلم, و من منكم اذا رأى جوهرة في فم كلب لا يأخذها ؟!" و كونه افتتح كتابه بهذا الاقتباس فيه دلالة عظيمة, فيزيد بن معاوية لعله ألعن من ابليس عند الشيعة الامامية, و مع ذلك اقتبس حافظ فاتحة كتابه منه, فهذا يدل على جوهر العشق الذي ذكرناه, فحتى ألعن خلق الله ينطق بالحق و هو لا يدري, أي يكون لكلامه بعد الهي "من حيث لا يشعرون" فيزيد كان يقصد بالساقي ساقي الخمرة الجسمانية, فهو فاسق عند أهل الفقه, و لكن المتأله اذا سمع هذه الكلمة فانه يعتبر أن الساقي هو ساقي الخمرة الالهية, خمرة ذات الله التي تسكر القلب. فحافظ افتتح كتابه بجوهر كتابه, و هو أن العشق لا يعرف الحدود, و لا يعرف التفريق, و لا يعرف المظاهر الجسمانية أو العقائد الفكرية. فهو قابل لكل شئ. متبسم دائما لأن الوجود كله هو الله "فأينما تولوا فثم وجه الله".

هل لذات الوجود اسم معين؟ و لماذا نستعمل اسم "الله" للدلالة عليه؟ الجواب: لا يوجد اسم معين و لا شئ. اذ الاسم نفسه حد. فاللامحدود ينطبق عليه كل اسم. اذ الاسم هو اشارة لغوية على موجود, فان كان الوجود واحد أحد فاذن كل موجود هو عين هذا الوجود. فالأصل أنه لا يوجد اسم معين للذات الالهية. فاستعمالنا لاسم الله هو اصطفاء لهذا الاسم كدلالة فردية للذات المفردة التي لا مثيل لها. فالله اسم علم لا ينطبق-في هذا الاعتبار- الا

على الوجود اللانهائي. و سر اصطفاء هذا الاسم هو في أربعة أمور: أولا, هو اسم يخرج من القلب, فحروفه رقيقة مهيبة عميقة المخرج تملأ النفس. و ثانيا, أنه لا ترتسم صورة معينة في القلب عند ذكر هذا الاسم, اذ هو مجرد و شمولي. و ثالثا و هو الأهم, أنه اسم كامل بنفسه جملة و تفصيلا, فهو اسم قائم يدل على الذات الالهية حتى اذا أزلت حرفه, فمثلا: الله, اذا حذفت حرف الالف يصبح "لله" و اذا حذفت حرف اللام يصبح "له" , و اذا حذفت حرف اللام الثاني يصبح "هو". فكل جزء من أجزاءه يدل على الذات الالهية بأحد الاعتبارات. و فيه تدرج في مقامات الشهود المختلفة: من مشاهدة الوجود ككل "الله" , الى مشاهدة الاشياء مملوكة و مفتقرة الى هذه الذات بالتعيين "لله", الى مشاهدة كل شئ متعلق بالوجود المجرد عن شخصية معينة "له", الى مشاهدة الوجود كمفارق للقلب و يكون القلب قد انفصل بدرجة ما عن الوجود "هو". و الرابع هو أن حروفه الأربعة تشير الى العوالم الأربعة بالاعتبار العقلي "بسم الله الرحمن الرحيم" و تفصيل هذه العوالم ليس محله هذا المقال. و لا يوجد اسم اخر فيه هذه الخصائص مجتمعة, و فيه اكثر و انما اختصرت المسألة. "هل تعلم له سميا"؟

و القرءان لا يوجد فيه باطل, فكل ما فيه حق, اما حق باعتبار العلم الافاقي و النفسي و الملكوتي, و اما حق باعتبار العشق الالهي. فالظلمات و الكفار و المنافقين و المجرمين و الشياطين و كل شخصياتهم و سلوكهم و أفكارهم هي أمور تدل على علم باعتبار, و تدل على العشق باعتبار اخر. فيوجد عمق في القرءان يتحول فيه الأنبياء الى أشقياء, و الأشقياء الى انبياء. و هذا هو عمق العشق. و في عمق هذا العمق يصبح النبي و الشقي اخوانا على سرر متقابلين.

ما هو الله؟ لعل أكثر ما يمكن ان يقال في هذا هو أن الله هو الوجود, الفراغ, المساحة, الجوهر, الطاقة. و ما وراء هذه الكلمات لا يدرك الا بالذوق القلبي عن طريق الذكر الدائم لاسم الله , و قبل ذلك التخلي عن التعلقات الدنيوية و العقلية الفلسفية. و لذلك لما وصف المعارضين للحق قال "الذين كفروا و كذبوا بلقاء الاخرة و اترفتهم في الحيوة الدنيا" , فالكفر هو البداية, الكفر بماذا؟ تركها مجهولة, ليشير الى انهم كفروا بالمجهول , اي لم يعترفوا بوجود شئ غير الأمور الظاهرية الجسمانية و معلوماتهم الفكرية, فبالتالي سيكذبون بلقاء الاخرة الذي هو "لقاء الله" كما في اية اخرى, "من كان يرجوا لقاء الله فان اجل الله لات". و بما انهم كذبوا بهذا المقام و هذه الحياة, فان النتيجة ستكون هي انهم سيتعلقون بالمنافسات الجسمانية فقط و سيسعوا الى الترف الدنيوي "و أترفتهم في الحيوة الدنيا". فاذن أول الأمر هو وجود القابلية للتعمق في المجهول, و قبول وجوده او على الاقل افتراض وجوده كأضعف الايمان. اذا كانت الأمور الظاهرية لا يجوز القطع فيها في المنهج العلمي الا عن طريق التجربة بل تكرار التجربة مرات عدة, فلماذا نرى الملحدين يجزمون ببطلان الله بدون ان يخوضوا قلبا و قالبا في التجربة الروحانية؟ هل عرفتم لماذا هم محجوبين: لأنهم كفروا بالله من قبل أن يعرفوه حقا أصلا. هم يكفرون بأصنام الأديان الارضية و السماوية,

و هذا امر مفهوم فنحن أيضا ملحدين بهذا الاعتبار. و لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد احد يمكن ان ينكر الله الحق "افي الله شك!" كيف تنكر "الوجود" ؟ و هل أنت معدوم! كيف تنكر الفراغ؟ فأين أنت! كيف تنكر المساحة و الطاقة؟ أنت فيها و بها! لا أحد ينكر الله. انما ينكر الناس الأصنام و الأوثان. فالملحد ليس رجل استثنائي يقوم بعمل غريب. انما هو رجل ابراهيمي قال "لا أحب الافلين" الى حد ما, و لكنه لم يكمل السير ليقول "اني وجهت وجهي للذي فطر". و حتى أهل الأديان كل واحد منهم يعتبر ملحد على هذا الأساس, اذ ان أهل هذا الدين ينكرون اله ذاك الدين بدرجة او بأخرى, فاذا كان رفض صورة من صور الله هو رفض لذات الله, فكل أهل الأديان ملحدون! و الحمد لله, فهذه خطوة كبيرة في سبيل الله الحق, و هي رفض كل الصور للوصول الى الجوهر. "كل الينا راجعون".

هل للعشق كتاب واحد؟ أعوذ بالله! ان الكتاب صنم من الأصنام, و وثن من الأوثان اذا لم يتجاوزه الانسان. ثم ان كان قول "الخبيث بن الخبيث" هو اية من ايات العشق, فمن بقي حتى لا يكون كلامه اية من ايات العشق؟! فقد يتجلى الله في كتاب أكثر و أقوى من كتاب بسبب قلب الذي نزل عليه الكتاب, و لكن في نهاية التحليل كل الكتب تدل على الله في جوهرها. و أيضا, فان ظهور الله بالكتاب يختلف أيضا بحسب قلب القارئ و المستمع او القارئ لهذا الكتاب. فمثلا, كلام القرءان قد يعتبر أعظم تجلي لله بالنسبة لأناس (كالمسلمين) و لكنه اعظم حجاب عن الله بالنسبة لأناس (كاليهود و الملحدين). و كذلك, فان ظهور الله في كتاب كالمثنوي المعنوي لجلال الدين الرومي او في ديوان حافظ الشيرازي أقوى (بالنسبة للبعض) من ظهوره في ديوان المتنبي و أشعار الجاهلية (المزعومة). فلا عبرة حقيقية في الكتاب, العبرة هي في ظهور الله. فحيثما ظهر لك الله فهذا كتاب الله لك. و حيثما انحجب الله عنك فهذا كتاب كفر و ضلال لك. لقد كان يوسف محبوبا الى حد التعظيم بالنسبة لنساء المدينة, و كان أيضا مكروها ملعونا بالنسبة لاخوانه الشياطين! يوسف هو يوسف, أنت الفرق! ليس الفرق في الشمس, الفرق في القمر. ان الله تجلى للجبل فجعله دكا, و تجلى لموسى فخر صعقا, و تجلى لابليس فقال "رب بما اغويتني"! ليكن توجهك الى ذات الله, و الله فقط و لا تلتفت الى المواضع التي تنحجب فيها عنه, بل اسع الى كشف السوء عن هذه المواضع ليظهر لك. و لذلك قال الحكيم ابن عطاء الله "الحق ليس بمحجوب, و انما المحجوب أنت عن النظر اليه.اذ لو حجبه شئ لستره ما حجبه.و لو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر.و كل حاصر لشئ فهو له قاهر . و هو القاهر فوق عباده " فلا تنشغل بالبحث عن الله, و لكن انشغل بتطهير قلبك من أصنام الأرض و أوثان السماء. و لا تلتفت الى الذين يلعبون بأجسامهم و عقولهم, "قل الله! ثم ذرهم في خوضهم يلعبون".

لعلك تتساءل: متى أرى الله؟ أقول: عندما يتوقف جسمك عن الحركة, و يتوقف عقلك عن التفكير, هنا ترى الله العلي الكبير.

فالعرفان هو مفتاح كل كنوز الأرض و السماء. العرفان دين و لكنه ليس دين. هو دين الحق الذي سيظهره العشق على الدين كله. و "الله غالب على امره و لكن اكثر الناس لا يعلمون" .

"فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم و ويل لهم مما يكسبون", " ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى".

ألا نلاحظ أن كلا الايتين و الويلين ينطبقا أيضا على هذا القرءان و أتباعه. هو أيضا كتاب كتبه الناس بأيديهم, و قالوا أنه من عند الله. و كذلك اذا سألتهم: ما حاجتكم الى هذا الكتاب سيقولون :ليقربنا الى الله زلفى. فهل القرءان أيضا صنم؟ هذا هو التساؤل الذي نريد أن نبحث فيه, فتعالوا ننظر.

من هو الله الذي نريد أن نصل اليه أصلا؟

الله بمعنى الوجود المطلق لا يوجد أصلا سبيل للوصول اليه لسبب بسيط و هو أننا لم ننفصل عنه أصلا! فكيف تصل أو تسعى للوصول الى شئ أنت غير منفصل عنه؟! فلا معنى لكل هذا الكلام و لكل الأعمال و لكل الاشعار الصوفية أو الكتب المقدسة و التعاليم الروحية, كل هذه غثاء, كلام فارغ لا عبرة فيه بل هو بحد ذاته حجاب عظيم لأنها توهمك أنك منفصل عن الوجود المطلق, و هو مجرد وهم تخيلي لا أكثر. كالسمكة التي تسبح في البحر المحيط ثم تذهب لتقرأ كتب أو تعمل طقوس لتصل الى البحر المحيط!! اعرف هذا جيدا لأننا لن نكرره, و من الأفضل أن لا تكرره انت أيضا: الله و ربك و الرحمن و كل هذه الأسماء ليس المقصود منها أبدا الوجود المطلق. الوجود المطلق ليس له اسم , حتى كلمة "الوجود المطلق" هي مجرد رمز تعبيري لا أكثر, و لكن في الواقع لا اسم و لا رسم, و لا حد و لا فصل, و لا كتاب و لا سعي. أقرب ما يكون التشبيه هو ان الوجود كالبحر, و أن عوالم الخلق كالعوالم التي في البحر, و عيب هذا التشبيه هو أن البحر له نهاية من فوقه و من تحته, و لكن الوجود المطلق لا حد له. , و الكائنات البحريه غير متماهيه ذاتيا مع ماهيه البحر ، و لكن كل موجود فهو عين الوجود. لا يوجد شئ في عوالم الخلق يمكن ان نمثله بالوجود المطلق لأن كل عوالم الخلق محدودة في ذاتها, و هو غير محدود في ذاته, فالافتراق بينهما ذاتي و ليس عرضي. و لكن مع ذلك فان الاتصال بينهما أيضا ذاتي حيث لا انفكاك بين الخلق و الوجود, الخلق في الوجود و بالوجود و من الوجود. فمن باب التجاوز و شئ من التحريف يقول الناس و نقول أن الله هو الوجود المطلق. هذا تحريف للقرءان و تحريف للواقع اذا دققنا النظر. من السفاهة ان نطلب الاتصال بالوجود, أو أن نزعم ان الوجود انزل كتابا دون كتاب, او انه امر بعقائد معينة دون بعض او ان له غاية معينة دون غايه اخرى. هو فيض دائم و امداد دائم و تجلي دائم لا فرق فيه و لا يميز احد عن أحد. فاذن على هذا المعنى لله أي الوجود المطلق

كل شئ يتخذ كوسيلة للوصول اليه يعتبر صنما ووهما و باطلا لأنه أوهمك انك منفصل عنه بأي نوع من أنواع الانفصال, بل انه جعلك تنفصل عنه من حيث انه اوهمك انك منفصل عنه. كما ضربنا مثل السمكة التي تتوهم انها منفصلة عن البحر و ان عليها أن تقوم بأعمال معينة و تعتقد بعقائد معينة لتصل الى البحر. و اعلم أن التأمل في الوجود المطلق هو سبب نشوء كل فلسفات الصمت و التأمل و الالحاد الروحاني و رفض المعلمين و رفض الكتب الالهية و رفض عقائد التجسيم لله أي التي ترى أنه محدود في موضع ما في الخلق و ما اشبه. بوحدة الوجود يحارب الدين الالهي. و من اسخف ما نقوم به و يقوم به الاخرون ان نزعم ان القرءان جاء بوحدة الوجود, و نحمل ايات مثل "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن" و "و هو معكم أينما كنتم" و غيرها على أن المقصود بها وحدة الوجود. نعم قد تكون فيها اشارة لذلك, و لكن هذا ليس فقط مختصا بهذه الايات او القرءان, كل شئ يمكن أن يدل على وحدة الوجود, كما أن كل ما في البحر يحوي اية على البحر ذاته المحيط به. فالقرءان على فرض انه عبر عن وحدة الوجود فقد عبر عنها من باب التذكير بحقيقة واقعية ليس غير. و لكن الأهم هو ما يأتي بعد وحدة الوجود, و هو عوالم الخلق.

عوالم الخلق متحققة واقعة لا مجال لانكارها بحال. عالم الجسم متحقق, عالم العقل و الفكر أيضا متحقق. عالم النفس الجامع بينهما أيضا متحقق. و غير ذلك من عوالم قد نعلمها و قد لا نعلمها. في عوالم الخلق هذه يحدث كل شئ, و فيها و عنها يتحدث القرءان خاصة و الدين عامة. العالم الأعلى, و العالم الأدنى و ما بينهما و ما تحث الثرى. الله هو الروح الأعظم. و هو مخلوق, بمعنى انه في عوالم الخلق, و أنه محدود. من في عالم السماء, اي العقل و الملائكة محدودين كلهم. فجبريل غير ملك الموت, و ملك الموت غير ميكائيل. فمهما كان حدهم فهو في نهاية المطاف حد. فهم ذوات مفترقة عن بعضها بدرجة ما. و كذلك الأفكار في العقل الانساني و هي مثال أو ممثول عالم السماء, أيضا محدودة, فالفكرة مهما كانت مرتبطة بالافكار الاخرى, فانها أيضا مفترقة عنها. و لذلك نقول ان الفكرة الفلانية "مرتبطة" بالفكرة الأخرى, فهي ليست عينها. كمثل الكلية و المثانة, هما عضوان منفصلان, كل منهما ذات لها خصائصها, و لكن في نفس الوقت كلاهما مرتبطين بالحالب و بغير ذلك مما يكون الأعضاء الباطنية للجسم البشري. فمن زاوية نقول "الجسم وحدة" و هي اذا نظرنا اليه بكليته. و من زاوية أخرى نقول "الجسم كثرة" اذا نظرنا اليه بعين التفرقة و التحليل و التمييز, فهذا القلب, و هذا الدماغ و هذا هو الراس و هذان هما الكليتان و غير ذلك من اعضاء تكون بمجموعها و ارتباطها ما نسميه "الجسم" البشري. فاذن عالم الأرض, اي الأجسام , محدود. و أيضا عالم السماء, أي العقول و الانوار, ايضا محدود. و كل من في الأرض محدود, و كذلك كل من في السموات محدود. العرش محدود. و الروح الاعظم, اي الله أيضا محدود. كل ما عدا الوجود المطلق مخلوق أي له قدر معين, له نهاية معينة, له حيز معين, له مكان معين.

"ربك" في القرءان ليس الوجود المطلق كما كررنا و سنكرر كثيرا حتى يزول هذا الالتباس القديم, ربك هو الروح الأعظم. و لذلك يقول "و نفخت فيه من روحي" , و أيضا "و جاء ربك, و الملك صفا صفا" و يقول "يوم يقوم الروح, و الملائكة صفا لا يتكلمون, الا من اذن له الرحمن", و يقول "قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن, ايا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" الجمع بين هذه الايات كفيل وحده بأن يكشف وجه الحق. فلندرسها بعمق و لنتأملها طويلا فانه يكمن فيها أعلى أعالي الدين, و اهم ما في الوجود لنا.

جاء ربك- يقوم الروح- اذن له الرحمن- ادعوا الله أو ادعوا الرحمن. المسألة شديدة البساطة و شديدة العمق أيضا. ربك هو الروح و من اسمائه الحسنى الله و الرحمن. أين هو الروح, أين هو الله؟ "الرحمن على العرش استوى" و "كان عرشه على الماء" و "وسع كرسيه السموات و الأرض" و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية" و "الذين يحملون العرش و من حوله" و "و ترى الملائكة حافين من حول العرش".

فما يشنع به على المجسمين (الذين يجعلون لله حدا) هو في الواقع تشنيع من اولئك الذين يخلطون- و ما أكثرهم- بين الوجود المطلق و الله (الروح العظيم). و كم تحرف القرءان بسبب هذا الخلط و السهو العجيب في دراسة القرءان! لم يستطيعوا أن يفهموا- و حق لهم ذلك- كيف يحمل عرش الله ثمانية, اذ الحامل أقوى من المحمول, فهل الملائكة أقوى من الله! و كذلك كيف يكون الله مستوى على العرش و هو غير محدود فهو ليس على عرش و لا على فرش, نعم هم يلفون و يدورون و يبغونها عوجا و يقولون أن العرش هو السلطة و القدرة و الاستواء و هو لا أدري ماذا من الكلام الفارغ. و ايضا تعجبوا من الاية التي تقول "و جاء ربك" كيف يجئ و هو غير محدود, و المجئ لا يكون الا من مكان الى مكان, او من مقام الى مقام, فهذا يستلزم الحد لله. لاحظ ان كل الانتقادات تنطلق من فكرة واحدة مغلوطة و هي أن الله هو الوجود المطلق. نعم اذا كان هذا هو الأمر فان كل انتقاداتكم صحيحة لا غبار عليها بل هي عين العرفان, و لكن من لوازم هذا الامر أن الدين كله باطل و الأنبياء ليسوا الا دجالين في أحسن الأحوال. اذ كون الله غير محدود و هو ذات الوجود المطلق المتجلي دوما بتجل واحد لا ينقطع و لكل موجود, يلزم من هذا بل يساوقه ضرورة أولا أن يكون كل احد متصل بالله اتصالا تاما لا حاجة بعده الى شئ. فأي عقيدة أو أي عمل أو أي سعى هو لغو. و هذا صحيح و لذلك نرى أن الاديان او الفلسفات الشرقية – كثير منها- و العرفانية مبنية على كون الله هو الوجود المطلق. ففضلا عن ان القرءان يصرح في مئات او الاف المواضع ان الله هو الروح و انه محدود , بل ان مجرد وجود القرءان و ايماننا انه كلام الله هو بحد ذاته برهان تام على ذلك. الفهم العرفاني للقرءان لا يعني أن القرءان عرفاني! بل يعني ان الناظر من العارفين. و لو نظر هذا العارف الى كتب جحا و حماره لوجد أسرار عرفانية و رموز مشرقية و تجليات الهية أيضا! فافهم هذا جيدا و تأمله طويلا فانه من أكبر مفاتح الغيب.

فضلا عن هذه الايت التي ندرسها, لننظر في بضع ايات اخرى تدل على هذا المعنى, و هي كثيرة جدا فنختار ما ياتي الى الخاطر. منها مثلا قضية الموت. مرة يقول "الله يتوفى الأنفس" و مرة "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم" و مرة "الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم". فالله يوكل كبار الملائكة و هؤلاء بدورهم يأمرون جنود الملائكة لتدبير أمور العوالم. و لو كان الله هو واحد (بالمعنى التفردي الذاتي المطلق) هو الذي يفعل كل شئ, فأي حاجة لملك الموت ليوكله, او لوجود جنود من الملائكة, او أي شئ من هذا القبيل. و قل مثل ذلك في جبريل و جنوده الذين يسطرون الوحي في قلوب الأنبياء.

و مثلا, تأمل في قصة موسى حينما صعد الى الجبل ليكلم الله فقال موسى لله "رب أرني انظر اليك, قال لن تراني و لكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني, فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا, و خر موسى صعقا " لاحظ أولا ان موسى طلب الرؤية بعد أن ارتفعت الاف الحجب بينه و بين ربه بالتكليم المباشر, فاراد ان يصعد درجة اخرى فمنع لسبب ما لسنا بصدده, المهم انه طلب الرؤية, فلو كان الله هو الوجود المطلق فمن السخافة اصلا لأغبى انسان في العالم أن يطلب رؤية الله كمثل سخافة أن تطلب السمكة رؤية البحر, و احسب ان موسى ليس أغبى من أغبى انسان في العالم. فعجيب أمر هؤلاء الذين يرون موسى أكبر العارفين ثم يقولون أنه كان جاهلا و غافلا الى حد انه طلب رؤية الوجود المطلق, و تأمل ان غفلة موسى هذه تمت –حسب رأيهم- و هو يكلم الله ذاته! ثانيا, الله رد عليه "لن تراني" لو كان هو الوجود المطلق لرد عليه "أنت أصلا ترى بي"! ثم علق الله طلب الرؤية على "انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني" فامتناع رؤية الله لم يكن لأن الله لا يرى لانه مطلق الذات كما يقول اهل العرفان, و لكن لان موسى لن يحتمل هذه الرؤية و ستجعله ينفجر. تصور مثلا أن تصب البحر في كأس, ماذا سيحدث للكأس؟ سيتدمر. كذلك اذا تجلى الله لموسى كان سيتدمر لأن نور الله أعظم بكثير من أن يصب في قلب فرد واحد, بل يعطي لكل قلب على قدر سعة القلب, و لهذا المعنى اشار بالمثل "انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها" فكما أن الوادي يحمل من الماء بقدر سعته هو ليس بقدر كمية الماء, فكذلك كل قلب يحتمل من ذات الله بقدر سعة القلب و ليس بقدر سعة ذات الله. و ثالثا, يقول "فلما تجلى ربه للجبل" هذا يعني انه لم يكن متجليا من قبل, او لم يكن متجليا بهذا القدر من قبل, و الوجود المطلق ليس له تجل ضعيف و تجل أقوى, بل هو ذات واحدة مطلقة ليس فيه شئ من هذه التدرجات. و لكن واقع القرءان يخبر أن الله يستطيع أن يقوي التجلي و يخففه متى شاء. فكمثل بسيط يوضح الأمر لمن لم يستوعب هذا: تصور أن كأسين سعه كل منهما 3 لتر ماء. جاء الساقي و صب في الكأسين ثلاثة لتر ماء فامتلأ كلاهما الى القمة. ثم تكلم الكأس الأول و قال للساقي: صب فيّ ألف ألف لتر من الماء دفعة واحد. فرد الساقي: ايها الكأس الحبيب, اذا فعلت هذا فانك ستتحطم و ستزول من الخلق و تموت. فاصر الكأس الأول, فمن رحمة الساقي قال له- لعله بعد أن اخذ اذن الكأس الثاني: سأصب ألف ألف لتر

ماء في أخوك هذا الكأس الثاني فان احتمل و بقي كما هو سليما سأصب فيك أنت أيضا. فلما صب فيه انفجر الكأس و تحطم الى شذرات و لم يبقى منها شئ و لم يذر. فذهل الكأس الاول عن نفسه و اغمى عليه من شدة المشهد, "فلما افاق قال سبحانك تبت اليك و انا اول المؤمنين". فالله يتجلى بقدر للمخلوقات, و هذا يعني على الاقل ثلاثه أمور أي يلزم من هذه الحقيقة ثلاثة أمور: ان لله قدر ما "و ما قدروا الله حق قدره". و انه ليس الوجود المطلق, لأن الوجود المجرد يستحيل ان يتجلى و لا يتجلى, اذ عدم التجلي أيا كان معناه أو درجته فهو حد. و ان الله من ضمن عوالم الخلق المتحققة في الوجود المطلق و هو أعلاها و ملكها و مصدر القوة فيها "لا قوة الا بالله".

و تأمل أيضا في قصة موسى, و هي من خير القصص تعبيرا عن علاقة الخلق بذات الله, عندما يقول ان موسى "ذهب" او "جاء" الى الله. يقول الله "فلما جاء موسى لميقاتنا" جاء من أين الى أين؟ ان كان الله هو تعبير عن وحدة الوجود فهل من المعقول أصلا أن يكون موسى قد "جاء" الى الله؟ هل من الممكن أن تقول السمكة "انا ذهبت الى البحر" و هي في البعين البحر لم تبرح. ان المشكلة مع المتدينين الذين يقولون بوحدة الوجود و أنها الله لا غير, هي انهم لا يدركون أن وحدة الوجود تنفي الدين كله و تنفي الله أيضا. لماذا "اتقرب" الى الله ان كان هو وحدة بسيطة شاملة لكل شئ و بها كل شئ؟ اي تقرب هذا. هل التقرب الا الانتقال من مكان الى مكان أو من مكانة الى مكانة (معنوية). وحدة الوجود تنفي وجود مكان و غير مكان. لا يوجد الا ذات الواحد المطلق فقط. ان طلب التقرب من الله (بهذا المعنى) هو عين الشرك و السفاهة. العرفان و القرءان لا يلتقيان. العرفان ينظر الى وحدة الوجود, وهو واقع لا شك فيه بل انكاره عين اثباته. و القرءان ينظر الى عوالم الخلق حيث يوجد مكان و زمان و درجات و نور و ظلمة و عذاب و نعيم, و بكلمة واحدة "حدود", سواء اعترف الانسان بالدين القرءاني ام لم يعترف, فان سنن القرءان تجري عليه. يوجد افكار يراها هذا الملحد انها "باطلة و ظلمات" منها افكار الدين مثلا, و يوجد افكار يراها "حق و نور", و يوجد حالات يشعر فيها بالفرحة و الغبطة و السعة و الضحك و هي من "الجنة", و يوجد حالات يشعر فيها بالضيق و التقزز و الاشمئزاز و الخوف و اللعن و هي من "جهنم". يوجد عنده أشخاص يراهم هم المستنيرين و هم "الانبياء" و يوجد أشخاص يراهم هم الجهلة المتخلفين الغافلين و هم "الأشقياء" و يوجد بين هذه الامور "درجات" و "اطوار" و غير ذلك. فسنن القرءان و امثاله هي أمثال و قوالب عوالم الخلق. استحالة أن ترى فردا واحدا أيا كان و مهما كان و أينما كان الا و هو تحت ظل امثال القرءان عرف ذلك ام جهله أم تجاهله. العرفان هو ارجاع كل شئ الى وحدة الوجود, القرءان هو ارجاع كل شئ الى الروح العظيم. و ما اتبع احد عرفان الا فرارا من قرءان. و في الواقع لن يفر من القرءان, بل هو تحت تأثيره شاء ام أبى. كمثل حكم قانون الجاذبية الأرضية, قد تحلم أنك تطير و لكن أثناء نومك هذا الذي تحلم فيه انك تطير أنت محكوم بقانون الجاذبية الذي يجذب جسمك الى السربر الذي تنام عليه. يوجد سنن في عوالم الخلق على اختلاف درجاتها, لا ينفك عنها أحد, القرءان ينظر الى هذه. العرفان يحاول ان ينفك عن هذه, و هو في الواقع محكوم بها, فهو كمثل الطفل الذي يمسك أبوه يديه ليجعله يمشي فيعتقد أنه يمشي لأن الوجود مطلق لا حد له فهو قائم بنفسه و ما أشبه من لغو, و لو تركه أبوه للحظة لسقط

على وجهه و نزف دما ثم سيدرك أين ينبغي أن يوجه نظره. و ان وحدة الوجود ذاتها تقع ضمن الافكار "النورانية"! و لذلك ترى العارفين يرفضون أعمال, و يرفضون افكار, فلو كانوا يرون كل شئ على انه واحد و مظهر للواحد (بالمعنى الوجودي) فلماذا ترفضونه اذا؟ هل ترفضون الله!

و تأمل أيضا في قصة ابرهيم "اذ قال ابرهم رب ارني كيف تحي الموتى, قال أولم تؤمن؟ قال بلى, و لكن ليطمئن قلبي. قال فخذ أربعة" كم في القرءان من ايات ثورية عظيمة يمر أكثر الناس عليها و كانهم عباد الرحمن الذين اذا مروا باللغو مروا كراما. ألا تتأملون هذه الاية. لاحظ ان ابرهيم يتكلم مع الله نفسه و مع ذلك يشك في امتلاك الله للقدرة على البعث فطالب بالبرهان على ذلك. و الله رضي منه ذلك! و لم يقل له انظر الى الارض الميتة كيف احيها بعد موتها, او انا خلقت العالم اول مرة فاستطيع ان اخلقه من جديد و ما اشبه من قياسات خطابيه فيها من الخلل المنطقي ما فيها و لا تورث يقينا أبدا بنفسها. و لو كانت تورث يقينا لاكتفى الله باحالة ابرهيم على هذه الأدلة , بل لما طلب ابرهيم من الله أن يرى قدرته على احياء الموتى عن طريق رؤية الكيفية, و الا لا معنى لمعرفة الكيفية و لا فائدة طالما انه ايقن بالقدرة. ثم ما سر "ليطمئن قلبي" ما علاقة معرفة الكيفية باطمئنان القلب؟ و ما علاقة رؤية هذه الطيور بذلك؟ الجواب هو لأن المسألة متعلقة بمعرفة وجود القدرة على ذلك. كمثل رجل يدعي انه يستطيع ان يرفع ثقلا من 1000 كيلو, فنقول له: ارنا كيف تفعل ذلك ليطمئن قلبنا الى دعواك. فالسؤال عن الكيفية في مثل هذه الموارد هو لاظهار القدرة. و كقرينة اخرى, لاحظ ان التجربة التي جعل الله ابرهيم يقوم بها ليست من قبيل احياء الأرض بعد موتها و ما شابه من امور اخرى يستدل فيها نظريا على امكان البعث و القدرة عليه, بل لا علاقة ظاهرة بين وضع الطيور على جبل و نداءهم و اتيانهم سعيا و كونها تشبه احياء الموتى (ظاهرا) في يوم القيامة الاكبر. اذ في هذه الحالة الاخيرة, و هي التي طالب ابرهيم بالبرهان عليها, انما تجربتها الأقوى ان يقول الله لابرهيم: خذ عشرة طيور و اذبحهم و ادفنهم لمدة عشرة ايام حتى يتحللوا ثم تعال و ناديهم و سيخرجون لك. هذا مجرد مثل تقريبي. فالمهم العبرة ليست بالتجربة ذاتها و انما باظهار القدرة عليها. و العجيب ان جنود هامان اليوم او رجال الدين يزعمون ان يقينهم تام, و يطالبون الناس بيقين تام بهذه الأمور, كمثل اليقين باحياء الموتى, و ابرهيم نفسه أبو الملة التي يدعون اتباعها كان يخاطب الله نفسه و مع ذلك لم يحصل له اليقين بأن الله يملك القدرة على هذا الاحياء, او على الاقل طالب ببرهان تجريبي يقيمه الله امامه , تأمل جيدا, ليس برهان قياسي, او تمثيلي, او خبر في كتب كتبها الناس منذ الاف السنين, بل برهان تجريبي يورث العلم القطعي الحضوري. و هذا وحده يكفي لاثبات أمرين على الأقل: ان ابرهيم كان يعلم ان لله قدرة محدودة و لذلك اراد ان يعرف هل احياء الموتى يدخل في هذه القدرة, و ثانيا ان اهل الدين- سادة و اتباع- غالبيتهم منافقين.

نعم الروح له قدر, اي "حد" بالمعنى العقلاني المجرد. كما ان كل ما في عوالم الخلق مهما ارتفعت درجته و قوته فهو أيضا له حد. و كون الله له روح او هو الروح, هو بحد ذاته حد. اذ ان الوجود كان بامكانه أن يجعل أعلى مقام في عالم الخلق هو شئ له جسم مادي, او انه كمبيوتر! كون الله له قدر لا يعني انتقاص لله, و العياذ بالله. و لكن هو تقرير لحقيقة واقعة و يظهرها القرءان بما لا مزيد عليه في علمنا الحالي.

هل لله مكان و زمان؟ الجواب نعم. فكل محدود فهو محدود في مكان او فراغ معين لا محالة. و لذلك يقول "عند ربك" أو "جاء موسى" او "الله نزل أحسن" و "على العرش" و ما اشبه. و هذه الايات تحكم على الايات التي تبين ان الله في كل مكان. و هذا ليس تحكما منا بلا علم. و لكن ثلاثة امور على الاقل تبرهن على ذلك: اولا كون الثابت ان لله قدر و انه ليس الوجود المطلق كما بينا من قبل. و ثانيا أن الله نفسه يبين أنه يتخذ من كبار الملائكة و جنودهم وسائط و الناس وسائط للعمل في الخلق, كما رأينا في مسألة من يتوفى الموتى, فلو كان هو ذاته في كل مكان لما اتخذ ملائكة يعملون بامره. و ثالثا, قوله "و هو معكم أينما كنتم" ليس مطلقا, بدليل أنه في موضع اخر يقول "اني معكم لئن اقمتم الصلوة و اتيتم الزكوة" فلو كانت المعية ذاتية, كمعية الوجود للخلق ان صح التعبير (كمعية البحر للسمكة), لكان من لغو الحديث ان يعلق هذه المعية بشروط فكرية و عملية من قبيل "لئن اقمتم الصلوة و اتيتم الزكوة" و غيرها. و أما عن الزمان ففضلا عن ان الزمان حقيقة ذاتية في عوالم الخلق, اذ بداهة كل شئ متحقق في الخلق كان له بداية و حياة و نهاية أو على الاقل يجري عليه كما يجري على بقية الخلق مرور الزمن, اذ هو الان, و هو الان, و هو الان, و هو الان, و هكذا, فهو في الزمن ضرورة. فان القرءان يصرح بذلك أيضا فيقول مثلا "ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون", و يقول عن ميقات موسى مع ربه "فتم ميقات ربه أربعين ليلة", و يقول "سنفرغ لكم أيها الثقلان" و غير ذلك. و كون الله بعث محمدا في وقت, و بعث موسى في وقت, و يبعث فلان في وقت, كل هذا يدل على أحد امرين: اما أن الله هو الذي قرر أن يبعث هذا الان و ذاك بعد حين, فيكون في الزمان, و اما أن كل هذا دجل و الله لم يبعث احدا اذ لا يوجد الله أصلا أو ان من خلقه من يعمل الامور باسمه و هو غافل عنه او تاركا له. و حيث اننا ننظر بعين القرءان فلا يمكن الالتزام بالاحتمال الثاني فيبقى الاول.

هل كون الله له مكان و زمان ما يعني أنه يمكننا أن نشير اليه باصابع اجسامنا هذه و نقول هو هنا او هناك؟ هذا سؤال طفولي. لان الله في بعد او درجة غير بعد الأرض و السماوات. فهذه السماء الجسمانية التي فوقنا ليست هي السماء المقصودة في القرءان, هذه السماء سميت بذلك من باب ضرب المثل فقط. فالأرض كروية, فلو كان الله في هذه السماء, فهو فوقنا و تحتنا في ان واحد, اذ ان السماء بالنسبة لنا هي فوق, و لكن بالنسبة لمن هو في جنوب الأرض هي تحت لنا و فوق لهم. لا, أيها العزيز, عالم السموات هو بعد اخر وراء بعد عالم الأرض و الأجسام, و بعد الله الروح العظيم وراء السموات و الأرض و متعال عنهما. فالله اله في السموات يتجلى لهم بأمور ما, و اله في

الأرض يتجلى للأجسام بنحو ما, فمثلا من تجليه في الأرض هو بهذا القرءان العربي, و من هنا يقول العارف العلوي "ان الله تجلى لخلقه في كلامه و لكن لا يبصرون". فلله تجليات في العوالم, و لكن هو بذاته ليس في العوالم و قد يتجلى فيها ان شاء, و يا طوبى لمن تجلى له بذاته و كشف له عن وجهه ذو الجلال و الاكرام.

و من تامل في اسماء " الاعلى " و "العلي " و "المتعال " ، يدرك من زاويه اخرى ان الله تعالى في عوالم الخلق و الحد و ان كان اعلاها. لان العلو نسبه، و النسبه لا تكون الا في ضمن الحدود، فبما ان لله اعلو فهو محدود و في عوالم الحدود. فلا معنى للعلو بالنسبه للوجود المطلق الواحد البسيط. اذ لا وجود لاعلى الا بوجود ادنى، و لا وجود لادنى و اعلى الا بوجود ما يمكن ان نسميه "محور قياس" للعلو و الدنو. و كل هذه من سمات الوجود المحدود.

و من التساؤلات التي يطرحها الذين يرون الله هواسم للوجود المطلق هو هذا: ان كان الله محدودا فهذا يقتضي تعدد الأزليين, اي وجود اكثر من ذات واجبة الوجود في الأزل. أقول: لا نختلف بسبب الاسماء, انا أيضا اعرف ان الوجود الأزلي هو واحد من حيث الاجمال , و لكنني لا اسميه الله, فاختلافنا هو ليس في تعدد الازليين او لا, بل هو في اسم الله هل يقصد به الوجود المطلق ام الروح العظيم ملك عوالم الخلق و منزل القرءان و مصداقه. هذا اولا. و ثانيا, من قال لكم ان الوجود الازلي ليس فيه الا ذات واحدة او وحدة صرفة بكل الدرجات؟ هذا غير صحيح. و ذلك لان الوجود كان و ما زال يحوي في ما نسميه "علمه" كل الممكنات و الاحتمالات التي كان بامكانه ان يخرج منها الخلق, و من بين كل هذه الاحتمالات اخرج هذه العوالم المتحققة الان. فاذن, منذ الازل و كل هذه الممكنات موجودة و متحققة في ذات الوجود, و ان لم تكن في مساحة الخلق او ما نسميه "خيال" الوجود. فالممكنات موجودة ازلا, و لم يوجدها احد, بل هي من مقتضيات الذات المطلقة, هي مساوقة لها. و الوجود لا يستطيع اصلا ان يعدمها, يعدمها الى اين!! المستطاع بالنسبة للوجود هو ان يخرج الممكن الى مساحة الخيال او الخلق, او ان يرجع المخلوق الى مقام الممكنات الأخرى. فاخراج و ارجاع فقط. و كل ممكن ذات, هو "شئ". و على ذلك عدد الذوات ازلا و ابدا لا يتناهى كما ان الذات المطلقة التي تعلم هذه الممكنات غير متناهية. و ابسط مثال على ذلك ان تتصور اكبر عدد يعلمه الوجود, و الجواب: اعداد لا متناهية, لان كل عدد يوجد اكبر منه. و هكذا في بقية الممكنات. فيوجد مثلا فيل اخضر و احمر و اصفر و اسود الى اخر القائمة, و من بين كل هذه الممكنات التي يمكن ان يظهر عليها الفيل اختار الوجود ان يظهر هذا الفيل المتواجد الان- على الاقل في هذه الارض. و قس على ذلك. فاذن كون الأزل لا يحوي الا ذات واحدة هو رؤية مرفوضة تماما. و من الناحية القرءانية و يؤيدها العرفان, يقول "انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون" فاذن يوجد الذات الامرة, و يوجد الذوات التي يمكن ان يأمرها, و يوجد الأمر, و يوجد القول, و يوجد الارادة, و يوجد القدرة على السماع في الممكن, و يوجد مقام الممكنات قبل الأمر, و يوجد مقام الممكنات بعد الأمر و الخلق, و يوجد عملية التكون. و ويوجد القدرة التي يسبح في بحرها كل عمليات التكون و السماع و الامر و

القول و الارادة و الامداد للخلق ليبقى. فهذه عشرة كاملة! فاعتراضكم المبني على استحالة تعدد الذوات في الأزل هو بحد ذاته مرفوض على كل المستويات العرفانية و العقلية و القرءانية. نعم اذا اعتبرت الذات المطلقة و تغافلتم عن وجود ما سواها من حبث ان ما سواها متعلق بعلمها و قدرتها و امرها اي كمثل من يختصر المملكة بالملك و يتغافل عن الشعب, فهذا قد يكون فيه وجه حق, و لكن في دائرة صغيرة فقط يجب ان ننتبه ان لا نجعلها تتجاوز قدرها حتى لا تعتدي على غيرها. لا أحد يستطيع أن يعدم وجود احد, و لا سيد الوجود نفسه. بل ليس له الا الأمر و اظهار الارادة, و لكن التكون راجع الى الممكن نفسه, فليس للوجود الا الأمر, و للممكن السماع فان شاء لبى و ان شاء كفر. "انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن" تأمل انه "يقول له" و ليس: يكونه! لا عدم, العدم وهم, العدم يعني الرجوع الى مقام الممكنات الأصلي الفاني او المختفي في الوجود اللانهائي. ففي الواقع لا عدم. انما رجوع الى الأصل.

أول ما خلق الوجود المطلق هو المكان و الزمان, و هما وجهان لعملة واحدة. ثم خلق الروح العظيم و امده بكل شئ. و كل العوالم خلقها الروح العظيم. الروح هو الله ذو الأسماء الحسنى. و من بعد ذلك لا علاقة فكرية او جسمانية او روحية بالوجود كتعلق معرفي. انما هو شئ وقع لا يهمنا في شئ. المهم هو الله. اذ ان الوجود خلق ليرى نفسه في الخلق اذ هم كمراة له. و خلق الروح العظيم ليكون سبب رحمة لتحقيق رغبات المخلوقين المعذبين ذاتيا لكونهم خلقوا و خرجوا من بحر اللانهاية و "العدم" او الوجود اللانهائي. كمثل سمكة اخرجتها من البحر لتجعلها تعيش في كأس صغير محدود. فالوجود اناني لا يبالي. و انما اصبح يبالي بعد ان عشق الخلق. و تفسير ذلك انه بعد ان خلق الخلق ليرى نفسه فيهم و يعرفها من زاوية التضاد, و تحقق له ذلك, اصبح يعشق الذي كان سبب رؤيته لذاته اللامتناهية, من هو هذا الذي جعله يرى نفسه؟ هو الخلق. و من عشقه هذا امد الروح العظيم بكل شئ ليعطي المخلوقات كل شئ. كمثل ملك عشق امراة قدرته حق قدره, فقال لوزير خزانته يوسف: اعطها كل شئ تريده! و ليس رغبة امراة العزيز الا التفات يوسف لها بوجهه الكريم ذو الجمال الالهي العجيب. فاصل الروح هو العشق.

الوجود خلق المكان و الزمان. و خلق الله الروح العظيم فقط. و لكن بعد ان عشق الله لكونه اظهر له ذاته و جعله يراها, اعطى الوجود للروح الاذن و القدرة ليخلق العوالم و يكون هو أيضا معشوقا عظيما يرى ذاته في المخلوقات. فمثل العلاقة بين الوجود و الروح(الله) كمثل العلاقة بين الملك و الأمير الصادق, قام الأمير باتمام المهمة التي اوكله بها الملك فجازاه الملك و قال له: اذهب و كون لنفسك مملكة مثلي. الوجود خلق الله ليرى نفسه, و الله خلق العوالم ليرى نفسه. و نحن في هذه العوالم التي خلقها الله. فيظهر ان الوجود و ما فيه علاقة بين متجلي و متجلى له و متجلى به. الوجود يرى نفسه في الله, و الله يرى نفسه في الخلق. و كمال كل مخلوق أن يرجع و يتحد و يفنى بخالقه. فنحن نريد وجه الله, و الله يريد ان يفنى في الوجود. فالكل يريد أن يفنى في الوجود و يرجع الى العدمية

ان صح التعبير, او الفنائية بتعبير ادق, او الوجود المطلق بأدق من ذلك. فكل شئ خرج من "هو" و سيرجع عاجلا ام اجلا, ظاهرا ام باطنا, الى "هو". فلن يكون الا هو. و الى ان تأتي هذه الساعة النهائية, فان مطلبنا و الذي يصبرنا هو تجليات وجه الله "و اصبر و ما صبرك الا بالله". آه من موسى! والله لو كنت مكانه لما قلت "اني تبت اليك" بعد ان رأيت الجبل يندك دكا من تجلى وجه الله, بل لقلت "زدني و لا ابالي"!

ما لا يلتفت اليه الذين يجعلون الله مطلق الذات فيكون بذاته في كل مكان و كل حال هو هذا: الذات المطلقة تستلزم أن يكون الله متجل بكل ذاته و منها مثلا فعل "الكلام" لكل أحد من الناس. و هذا يعني ان قول القائل "لقد جئتكم برسالة من عند الله" تساوي في سخافتها قول السمكة لباقي الاسماك "جئتكم برسالة من البحر". اذا كنتم ترون اثبات حد او قدر لله هو امر شنيع دينيا, فان عدم اثبات قدر لله هو أشنع اذ انه يمحو الدين كله. الاطلاق الذاتي يساوق التجلي الدائم, بل لا يوجد متجلي و متجلى له, اذ هذا يلزم وجود فراغ او حجاب بين الذات المتجلية و المتجلى لها كمثل وجود مساحة بين الانسان الذي يتجلى للمرآة و المرآة. فنظرية التجلي العرفانية لا قيمة لها في ظل كون الله مطلق الذات. بل انه عندها لا يكون عند الله الاختيار ليتجلى او لا يتجلى, و هل يستطيع ان يحجب نفسه و هو المطلق, و بماذا سيحجب الخلق عنه. تأملوا هذا جيدا و افهموا. انكم تقولون ان الله هو المطلق, و لكن معنى كلامكم هو انه محدود, اذ انكم تقولون بتجلي الله و انحجاب العبد و نزول الكتب و وجود المخلوقات و ما اشبه. فعلى الأرجح ان معنى كلامكم هو انه مطلق بالنسبة لكم, كما سنبين , فهذا مقبول وواقعي. الله ليس في السماء, الله ليس في الأرض, اذ انه خلق السماوات و الارض. فأين كان قبل أن يخلقهما ؟ في ذلك المكان و الزمان الذي لا نعرف له وصفا, نحن نعاني في فهم المكان و الزمان في هذا البعد الجسماني فما ابعد فهمنا لذلك المكان و الزمان الالهي. و مع ذلك و بغض النظر عن قدرتنا على الفهم, فان عدم الفهم لا يعني عدم التحقق. البراهين تدل على وجود المكان و الزمان لله, و لكن التفصيل لم ينكشف لي بعد. و البناء الراسخ يقوم على الاساس الراسخ.

ان العرفان من المعرفة, و وحدة الوجود أي مقام الذات المطلقة يحوي المعرفة و الجهل و يتعالى عن المعرفة و الجهل, فاذن تسمية اهل وحدة الوجود بالعارفين هي تسمية مسروقة يجب أن ترد لأصحابها. من الان فصاعدا لن نسميهم العارفين, و لكن النائمين. العارفين هم أهل الله و خاصته, هم القرءانيين, و من تبعهم باحسان ولو لم يفتح هذا القرءان العربي في حياته.

فبالنسبة للوجود يكون الله محدود, و لكن بالنسبة للمخلوقات يكون الله عظيم فوق طاقتهم و سعتهم و قد يقال لامحدود تجوزا. اذ عرفا قد نصف الشئ انه محدود حينما لا يفي بأغراضنا و يحقق رغباتنا. فمثلا قد نكون جوعى

جسمانيا فنذهب الى حفلة عشاء في بيت صديق, فلا يقدم لنا الا نوع من الطعام بكمية قليلة , فتبقى شهيتنا غير مشبعة بكل ابعادها من صنوف الطعام كالحار و البارد و الحلو و المالح و القاسي و اللين و غير ذلك من مشروبات منوعة, فيصح ان نقول عن هذه الحفلة انها "فقيرة و محدودة". و لكن قد نذهب الى حفلة في بيت أمير (سرق اموال الشعب باحتراف!) فأقام مائدة فيها من كل ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين و لديه أيضا زيادة على ما نرغب فيه و نشتهيه و نستطيع ان نتناوله و لو جلسنا عشرة ساعات عنده نأكل, فيصح ان نقول عن امكانيات هذا الأمير و مائدته انها "غير محدودة". و كثيرا ما نستعمل تعبير "لا محدود" عندما نصف امورا تزيد عن رغباتنا و قدرتنا و سعتنا, او الامور التي في الواقع لها حد تنتهي اليه و لكنه حد بعيد جدا لا يمكن للانسان العادي ان يتصوره , كمثل خزائن قارون و من لف لفه من النصابين و محترفي السرقة من رؤساء الشعوب , فنقول ان حسابهم المالي "غير محدود". فنعم, بالنسبة لنا الله غير محدود. فموسى حينما عرف أن ذات الله أعلى و أكبر بكثير مما يستطيع ان تتحمله سعة قلبه سيقول بلسان الحال ان الله "غير محدود" لان الله يملك كل ما يمكن ان يشبعنا و يزيد عليه أضعافا مضاعفة و الله واسع عليم. و لكن اذا نظرنا بعين الوجود فان الله محدود, اي في عوالم الخلق. فالله محدود و غير محدود, بحسب أية زاوية تنظر منها. و لكن أيا كانت الزاوية فيجب أن تتذكر ان الله ليس هو الوجود المطلق, الله هو الروح العظيم, او الروح العظيم هو الله.

و الان نستطيع ان نضع تساؤلنا الذي انطلقنا منه بصورة اوضح: كيف نستطيع ان نصل الى ربنا الروح العظيم؟

هذا يستدعي جماعة من التساؤلات و يولدها: كيف انفصلنا عن الروح؟ و لماذا انفصلنا أصلا و بماذا؟ و ما معنى الوصول اليه؟ و هل يمكن اصلا الوصول اليه؟ هل هو عمل جماعي ام فردي ام مزيج بينهما؟ اذا كنا قد انفصلنا فمن سبب ذلك؟ و قبل كل ذلك هل نحن منفصلين عنه حتى نطلب وصاله؟ لماذا نطلب وصاله؟ و ماذا سيحدث ان لم نصل اليه أو نرغب في ذلك, و ماذا سيحدث ان رغبنا و لكن لم نصل, و ماذا سيحدث ان رغبنا ووصلنا؟ تساؤلات كبيرة و عميقة و مهمة جدا و هي أساس لكل ما بعدها. و لعل الله يشرق علينا باجابات لهذه التساؤلات.

"انا لله و انا اليه راجعون".

(شرح فتوح العارفين)

(تمهيد)

"طهر بيتي للطائفين"

كما يعرف أهل الذكر, فان شرح العشق و شؤونه هو عشق أيضا. و دراسة فتوحات العارفين أهل الذكر يوسع افاق القلب لأبعاد جديدة في معرفة الله و الحياة به. فالقلب كالوادي, فالوادي الصغير يمتلئ بماء أقل من الوادي الكبير, و توسيع و تعميق القلب يتم بأمور لعل من أهمها هو الاطلاع على قلوب الاخرين. و قلب العارف يتجلى في كتاباته. فدراسة كتب العارفين تؤدي الى فتح أبواب القلب لذات الله أعظم مما لو اكتفيت بتجربتك الشخصية فقط.

ساصطفي اربعة من العارفين و أربعة كتب لهم و سأخذ الكلمة الاولى من هذه الكتب لنرى بماذا سنخرج. فان أهل الذكر يعلمون أن البداية هي عين النهاية, كمثل الدائرة التي نقطة البداية فيها هي عين نقطة النهاية. الأربعة هم جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المعنوي, و حافظ الشيرازي صاحب الديوان المعروف بديوان حافظ, و محي الدين ابن عربي صاحب فصوص الحكم, وابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم العطائية.

فسننظر في أول بيت من ابيات المثنوي و هو "استمع للناي كيف يقص حكايته, انه يشكو الام الفراق"

و أول بيت من ديوان حافظ و هو " ألا يأيها الساقي أدر كأسا و ناولها, فاني هائم وجدا فلا تمسك و عجلها"

و أول جملة في متن فصوص الحكم و هي في كلمة ادم "لما شاء الحق"

و أول حكمة من الحكم العطائية و هي "من علامة الاعتماد على العمل, نقصان الرجاء عند وجود الزلل"

و اني لا أدري بعد لماذا اخترت هؤلاء الأربعة و هذه الكلمات الأربعة على وجه الحصر. و لكن ما أشعر به هو أن هذه الكلمات الأربعة تحوي العرفان كله من كل زواياه, كل وحدة تفسره من جهة. و الطائف هو الذي يرى الحقيقة من كل الجهات. و كل عارف يقص الأمر من جهته هو, حتى يأتي عارف و يجمع الجهات كلها في قلبه فيكون مصداق "الأمر الجامع" الذي عليه الرسول صاحب المقام الأعلى. فتعالوا لنرى ماذا يفتح لنا..

1 (استمع الى الناي كيف يقص حكايته, انه يشكو الام الفراق)

ترجمة النصوص غالبا ان لم يكن دائما لا تصيب عين النص الأصلي, و من هنا اصطلحوا على ان "الترجمة خيانة". خاصة لو كان النص الأصلي هو عمل شعري و رمزي فان صعوبة الترجمة تتضاعف. و المثنوي أصلا هو بالفارسي و

انما نتعامل مع الترجمة العربية للمثنوي. و عندي ترجمتين لهذا البيت الاول, احداهما هي التي نقلتها, و الثانية هي هذه "استمع الى هذا الناي يأخذ في الشكاية, و من الفرقان يمضي في الحكاية" , و ظاهر الفرق بين الترجمتين. و لكون المترجم ينظر من وجهة معينة حينما يقوم بعمله, فاني سأستعمل الترجمتين ليكونا دليلا لنا في دراسة هذا البيت الذي هو فاتحة المثنوي الالهي.

(استمع). يتفق غالب اهل الاسلام على أن اول كلمة انزلت على النبي محمد عليه السلام هي "اقرأ" , و المثنوي كما يقول صاحبه هو "كشاف القرءان" , فيوجد علاقة قوية بين المثنوي و القرءان, و الكثير من قصص المثنوي و رموزه هي اقتباس من القرءان بدرجة أو بأخرى. فلماذا جعل فاتحة كتابه عكس فاتحة كتاب نبيه؟

يقول الله "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون" و يقول أن القرءان "لقوم يعلمون". القراءة عمل ايجابي, فعل عقلاني. فيكون الوعي بالذات العاقلة على أشده. و لكن الاستماع هو عمل سلبي, هو تقبل قلبي, و مع الاستغراق في الاستماع يذوب الوعي في بحر الصوت و المتكلم حتى ينغمس و يفنى في ذات المتكلم فيحصل نوع من الاتحاد بين السامع و المتكلم.

القراءة تعني أننا نريد أن نبني شيئا, او نربط بين أمور متفرقة. و لكن السماع يعني قبول الواقع و الحقيقة كما هي , و السماح لها بالتجلي في قلوبنا. القراءة تشعر بانفصال بين القارئ و المقروء, و لكن السماع يشعر باتحاد بين السامع و المسموع. القراءة للعلم, و السماع للعشق. و بسبب كل هذا و غيره, جعل المثنوي فاتحته "استمع". فالمثنوي كتاب للعشاق و لا يريد غير هذا في الأصل. و اما القرءان فهو كتاب علم في الأساس "لقوم يعقلون, لقوم يعلمون, لقوم يذكرون" و حتى السماع فيه انما هو سماع القرءان , "ان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله". فالقرءان دائرة مغلقة, كل كلامه يشير الى ذاته. و حتى اذا دل الانسان على شئ خارجه انما يدله حتى يرجع اليه, كما في قوله "سنريهم ءايتنا في الافاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" لاحظ كيف بدأ من ذاته "ءايتنا" ثم دلنا على الخروج و رؤية ما هو خارجه "الافاق و أنفسهم" ثم أظهر الغاية من هذا الخروج و التي هي العودة الى نفس القرءان بايمان و تعلق أكبر "حتى يتبين لهم أنه الحق". و هذا معنى أنه دائرة مغلقة حصرية. و أما كتب العشق, كالمثنوي, فلا تحيل الى براهين الحق و الباطل بل لعلهم لا يميزون بين هذه المعاني العرضية الجسمانية و العقلية, فاهتمامهم هو بما وراء الجسم و العقل, و الذي يحوي الجسم و العقل و يربطهم ببعضهم, فهم كابرهيم الذي ترك أصنام الأرض الجسمانية و أنوار السماء العقلية ليتوجه الى ما وراءهما "اني وجهت وجهي للذي فطر السموت و الأرض حنيفا".

(استمع الى هذا الناي) يوجد فرق بين ان يقول "استمع الى الناي" و "استمع الى هذا الناي" . و هو فرق شديد الأهمية. و يشبه الفرق بين "ان قومي اتخذوا هذا القرءان مهجورا" و بين فهم عامة الناس و هو "ان قومي اتخذوا القرءان مهجورا". وجود كلمة "هذا" يدل على وجود أكثر من ناي و قرءان. فلو لم يكن الا كأس واحد على المائدة لقلنا: أعطني الكأس. و لكن اذا قلت:أعطني هذا الكأس. فهذا يعني وجود أكثر من كأس, و طلبي هو بالتخصيص هذا الكأس.

قوله "هذا الناي" يشير الى ناي معين, و لكن "الناي" فقط تشير الى أي ناي. و يظهر أن كلا الاحتمالين صحيح من احدى الجهات. و لكن قبل هذا يجب أن نعرف ما هو الناي أصلا؟

الناي: قطعة مادية, ينفخ فيها العازف, فتصدر صوت موسيقي, حزين. فهو رمز على الانسان الكامل بالروح. فالجسم هو القطعة المادية, و العازف هو الله الذي ينفخ من روحه في هذا الجسم الميت. و الصوت الموسيقي هو كلمات اهل المعرفة الهية و العشاق. و الحزن انما هو بسبب الفراق. و لذلك قال "انه يشكو الام الفراق". ان لكل خزانة وسر مفتاح, و مفتاح خزائن و اسرار المثنوي هو هذا "الناي".

فكل عاشق هو ناي, و لكن العاشق في المثنوي هو جلال الدين الرومي. و لذلك قال "اسمتع لهذا الناي". يقصد نفسه. و قال "استمع للناي" يقصد كل العشاق. فكلا الترجمتين صحيحة.

و لكن هنا يرد علينا تساؤل: و لماذا يحدث العاشق و يشكو الى الناس الام فراقه؟

كل انسان يريد أن يعود الى المقام الأول الذي كان فيه و هو الجنة في الله. و الجنة تعني الاختفاء و الاستتار و من هنا سمي "الجنين". و قبل الخلق و الظهور كنا كلنا مع بقية الأشياء مستورين في ذات علم الله. "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن و هو بكل شئ عليم". ثم لما وصل الله الى "هو الذي خلق السموت و الأرض" ظهر بعض من كان في جنة الله الى عالم الخلق الذي هو خيال الله. و من هذه اللحظة و الحياة كلها انفاق للطاقة, و سر هذا الانفاق هو الرغبة في العودة الى الحالة العدمية- ان صح التعبير- او حالة الفناء و الهلاك ان أردنا الدقة العرفانية "كل من

عليها فان" "كل شئ هالك". فخروج النفس من مقام اللامحدود في الجنة, الى مقام الحدود في الخلق, هو هذا الفراق و الألم و الاشتياق و كل الرموز التي تشير الى الله و العودة اليه.

و من هنا نفهم السبب الذي يجعل العاشق يتكلم. فنحن نعلم من أبحاثنا النفسية أن تصور الكمال يتحقق بأعمال معينة احداها هو "الكلام". و لذلك نرى الكثير من الناس يرغبون فعلا في تحقيق امور معينة, و لكنهم لا "يفعلون" شيئا, بل يكتفون بالكلام. و من هنا ايضا تنشأ ظاهرة الأحلام التي هي أصلا تحقيق للرغبات عن طريق الخيال العميق للحالم. فالعاشق الذي يريد الموت ليرجع الى الله, ماذا بيده أن يفعل؟ اما أن يقدم على الانتحار, و هو ممنوع شرعا عند أمثال الرومي. فاذن لايمكن استعمال الفعل لتحقيق هذه الرغبة. فلم يبق الا الأعمال الأخرى التي تستعملها النفس لتحقيق رغباتها و هي : الكلام, و الدعاء, و الخيال, و الأحلام. فلولم يتكلم العاشق لانفجر قلبه!

هذه هي مواضيع كتب العشق: حالة السعادة في المقام الأول, لماذا خرجنا من ذلك المقام, كيف اتينا الى هذا العالم, كيف نرجع الى ذلك المقام, ما هي حالة النفوس التي لا تسعى للرجوع الى ذلك المقام, ما هي الأعمال التي ينبغي للراغبين في الرجوع أن يقوموا بها, ما هي علاقتنا الحالية بذلك المقام.

اذا عرفت هذه المواضيع جيدا, فان أبواب رموز العشاق و العارفين ستتفتح لك كما تتفتح أبواب السماء للأنبياء. و الذي لا يعرف أن العارفون انما يتحدثون عن هذه المواضع فانه سيتيه كاليهود في صحراء كتبهم و هو لا يدري أين هي الأرض المقدسة التي ينبغي ان يصل اليها قلبه, فسيرى أن كلامهم كثير و متضارب و متناقض و سخيف أحيانا و الحاد في أحيان أخرى. و هذا لأنهم لم يأخذوا مفاتح الغيب معهم, بل أرادوا أن يكونوا كالسارق الذي يعمل على كسر القفل و القفز من النافذة الخلفية, أو كالذي يقف أمام البيت فلا يفتح له لأنه غريب فيدعي أنه لا يوجد أحد في البيت او ان أهل البيت موتى أو فقراء لا يستطيعون اطعام الضيف. كل من لا يقدر كتب العارفين انما هو من امثال هؤلاء. لكل كتاب مفاتح معينة من لا يأخذها لا ينفتح له الكتاب "و اذا قرأت القرءان جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا".

و لذلك قال (استمع الى هذا الناي كيف يقص حكايته) فحكاية الناي هي هذه المواضيع التي ذكرناها و ما يشابهها و يلازمها.

2 (ألا يأيها الساقي أدر كأسا و ناولها, فاني هائم وجدا فلا تمسك و عجلها)

من هو الساقي؟ هو الله و هو العاشق العارف بالله.

هو الله. فساقي الخمر يعني الذي يصب الخمر في كؤوس الراغبين في الشرب. و هذا الصب هو تجلي ذات الله لقلب الراغب في الله المجاهد في سبيله. و الخمر هو الذي يغطي على الشئ, و منه الخمار الذي تضعه المرأة. وما هو الشئ الذي يغطيه تجلي الله للقلب؟ كل شئ! يصبح القلب لا يرى الا الله. بل يختفي القلب و لا يوجد الا الله. فترى العشاق سكارى و ما هم بسكارى و لكن ظهور الله شديد.

هو العارف بالله. اذ العارف هو الذي سقاه الله من خمرة تجلياته. فقلبه يصبح يفيض بهذا العشق. و منه يصوغ كلماته و أشعاره. فالان هو بدوره يصبح قبلة للساعين الى الله, كالرسول, و يكون نداء "ألا يأيها الساقي أدر كأسا و ناولها" هو نداء الساعي الى الله المتوجه الى العارف بالله. فمثلا, التائه في الصحراء العطشان الشديد العطش, تراه يسأل الله الساقي الأول لينزل عليه ماء السماء, و لكن لحكمة أو لاخرى قد لا يستجيب الله له, فتراه عندها يبحث عن رجل أو امراة تملك ماءا مخزونا من ماء السماء و الأرض, فاذا وجد مالك الماء ناداه "الا يأيها الساقي أدر كأسا و ناولها فاني ظمآن جدا فلا تمسك و عجلها". فالذي سيموت من العطش لن ينتظر ماء السماء و لكنه سيطلب من ماء السماء الذي نزل من قبل أثناء انتظاره لماء السماء لينزل عليه مباشرة. و ان كنت في شك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك.

فهذا البيت فيه معنى مزدوج عميق. فهو توجه الى الله, و توجه الى العاشق لله. و الفرق بينهما هو كالفرق بين "أطيعوا الله و أطيعوا الرسول" فبالرغم من انها طاعة واحدة في الحقيقة, اذ ان الرسول هو الذي يطيع الله, "من يطع الرسول فقد أطاع الله", و لكن مع ذلك فان الذي لا يستطيع ان يصل الى الله مباشرة فانه يستعين بالرسول خلال سعيه. "و تعاونوا على البر و التقوى".

ما هي الكأس؟ هو القلب. و جعله مؤنث لأن القلب هو الذي يستقبل و يكون كالمرآة التي يتجلى فيها الله. و كثير من الرموز حول الكأس على مستوى العالم هي رموز على القلب.و هي أيضا الكتاب. اذ الكتب هي اظهار لما في

القلب. و لذلك قال "أولئك كتب في قلوبهم الايمن". فأولا يظهر الأمر في القلب ثم يظهره الانسان في الكتب. فالكأس على هذا الاعتبار يكون كتب العشاق التي أظهروا فيها أحوالهم و أسرارهم التي تجلت فيهم بسبب سلوكهم المعنوي الى الله و في الله.

فقوله "أدر كأسا" يعني اكتب ما في قلبك من علم و أسرار. "و ناولها" يعني أعطني اياها و انشرها بين الناس. "فاني هائم وجدا" من شدة رغبتي في الله و كل ما له علاقة بذات الله العظيم, "فلا تمسك" اذ ان الاحتكار محرم, و حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم, "و عجلها" قبل أن أجن و أصيح أو أقدم على الانتحار بسبب شدة شوقي الى الرجوع الى الله.

فحافظ هنا يجعل نفسه هو الساقي, و يجعل كل من سيقرأ كتابه كانه هو الذي يناديه و يطلب منه ان يسقيه بخمر معرفته بالله. فكما جعل الرومي نفسه كالناي, حافظ يجعل نفسه كالساقي. و لكل وجهة هو موليها, و كل يعمل على شاكلته.

فأصوات الرومي هي أصوات شكاية فراق و حزن, و اما أصوات حافظ فهي أصوات غيبة سكر و فرحة. و هذا فقط كأصل.

3) لما شاء الحق)

هذا هو نص الجملة الاولى بكاملها "لما شاء الحق سبحانه, من حيث أسمائه الحسنى التي لا يبلغها الاحصاء, أن يرى اعيانها- و ان شئت قلت ان يرى عينه- في كون جامع يحصر الأمر كله"

ابن عربي يتحدث عن ذات الله مباشرة, و يعمل على تفسير الموضوع الكبير جدا في العرفان و هو سبب الخلق. و نظريته مجموعة كلها في هذه الجملة. و باقي الكلام تفصيل و استدلال و ضرب لأمثال.

و كما نرى فانه يرد الأمر كله الى المشيئة الالهية. "لما شاء الحق". فكأنه يقول ان ما وراء ذلك لا يمكن ادراكه. فهو لا يفسر لنا لماذا شاء الحق أصلا هذا الامر, أي أن يرى نفسه في مراة خلقه. و بالطبع نحن هنا لسنا في مقام نقد نظرية ابن عربي, و لكن نحن هنا نذكر فواتح هؤلاء العارفين لنستشف أصولهم و منطلقاتهم في العرفان.

يمكن ان نقول عن ابن عربي أنه المنظر العقلاني للعرفان. فلا شك أنه لا يوجد الى الان من قام بمثل ما قام به. اذ لعله لم يترك مسألة في العرفان الا و تعمق فيها. و لاحظ انه لم يبدأ كتابه العظيم فصوص الحكم بالاستدلال على وجود الله مثلا, او الاستدلال على وجود أسماء حسنى له, أو اثبات أنه في الامكان تصور خروج المتناهي المحدود من اللامتناهي المطلق. و أيضا لم يستدل على وجود مشيئة حرة لله, أو ما هو الذي جعل هذه المشيئة تظهر فجأة بعد أن لم تكن, أو لماذا تعلقت بخلق هذا العالم على سبيل الاصطفاء و ليس غيره من الممكنات. فالبداية بكلمة "لما شاء الحق" تستبطن سبعين او سبعمائة مسألة أو أكثر. و كل ذلك اخذه على سبيل التسليم مبدئيا على الاقل, و كثير من هذه المسائل قد فصله في مواضع أخرى من كتبه, خاصة كتابه الموسوعي "الفتوحات المكية".

و لكن هذه البداية لها دلالة خاصة. "لما شاء الحق", تدل على منهج ابن عربي الذي يبدأ من الله و ينزل الى المخلوقات. و فيه أيضا أن نهاية كل مسألة او حادثة يجب أن تنتهي الى مشيئة الله. فكأن سلسلة الأسباب و المسببات تنتهي الى المشيئة التي لا يفسرها شئ, أو على الأقل لا يدرك الانسان تفسير هذه المشيئة.

فابن عربي يهتم بالعرفان على المستوى الوجودي الكوني و العقلاني كأصل. و لكن الرومي يبدأ من الانسان و يصعد الى الله, و كذلك حافظ يبدأ من الانسان و يصعد الى الله, و أما ابن عربي فيبدأ من الله و ينزل الى الانسان. فمنهم من يتبع قوس الصعود و منهم من يتبع قوس النزول. و عند اكتمال الصورة نرى ان كلا منهما قد صعد و نزل, و نزل و صعد.

و يقول ابن عربي مفسرا سر الخلق "فان رؤية الشئ نفسه بنفسه ما هي بمثل رؤيته نفسه في أمر اخر يكون له كالمرآة المجلوة, فانه تظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه مما لم يكن له من غير وجود هذا المحل و لا تجليه له" فالله هو الذي كان يرى نفسه بنفسه قبل الخلق, و لكنه اراد أن يرى نفسه في شئ اخر, و هذه المراة هي عوالم الخلق.

فالعرفان ليس فقط أشعار و أذكار, و لكنه أيضا فيه فكر و فلسفة و تحليل و أمثال و فهم. و لعل ابن عربي هو خير من يمثل هذه الزاوية من العرفان. و هذا من أسباب تسميته بالشيخ الأكبر. و لذلك أيضا كانت كتابات ابن عربي أغلبها نثرية و ليست شعرية. فهو يهتم بالعقل العرفاني أكثر مما يهتم بالشعر العرفاني و المشاعر. فابن عربي فيه شئ من الصلابة, و ليس كرقة الشيرازي او الرومي (الفارسيان), و لعل أصله العربي له مدخليه في ذلك. و يحتاج العرفان الكامل الى صلابة مثل ابن عربي حتى لا يذوب كليا في رقة الشيرازي و الرومي.

4 (من علامة الاعتماد على العمل, نقصان الرجاء عند وجود الزلل)

اذا أردت أن تتصور كيف يكون شكل العرفان اذا تحول الى قانون ذو مواد كالقانون المشهور في الدول المدنية, فان كتاب الحكم العطائية هو تحقيق هذا التصور. و الفرق بين القانون و الحكم هو أن القانون جامد و لعله يميت القلب, و اما الحكم العطائية فانها روح للعقل و القلب.

"الله ولي الذين ءامنوا يخرجهم من الظلمت الى النور", فكل انسان سيبدأ سيره الى الله من الظلمت. و فاتحة الحكم تخاطب هذا الانسان الذي سيبدأ سيره الى الله. فالناس عادة ما تستصغر أنفسها بسبب حياتها السابقة في الظلمت و الجهل و الغفلة. فيقولون: و من نحن حتى نصل الى الله او أن يصلنا الله؟! ان أعمالنا أعمال العصاة و الغافلين فلا أمل لنا في الدخول في حضرة الله و الانضام في سلك عباده المخلصين. و هذا اليأس هو الذي يتوجه له الحكيم ابن عطاء الله و يقول له بلسان الحال: و من قال لك ان الوصول الى الله هو بسبب أعمالك؟ ان الوصول الى الله هو بفضل الله أولا و اخرا, و لا أحد سيقتحم غرفة الملك و يجلس معه حتى يأذن له الملك بذلك. فلا تعتمد على عملك لا الان و لا لاحقا, بل ليكن قلبك متعلق بالله حصرا, و رجاؤك فيه وحده.

فهو يبدأ بالغاء تصور الناس في الاعتماد على العمل و كونه السبب الوحيد الى الله. و يحول هذا التصور الباهت الى تصور أعلى منه و هو التوكل على الله و توحيد الرجاء فيه و منه و به. كم من الناس يرفضون سلوك الطريق الروحي الى الله بسبب أنهم يرون أنفسهم خطاة و أهل زلل! كم من الناس لاشعوريا يكرهون الدين بسبب علمهم بأفكارهم الأثمة و رغباتهم المنحرفة (أو هكذا يحسبون) و بسبب هذا لا يقبلون كون الله يحبهم و كونه لا يبالي بكل هذه الافكار و الرغبات, و انما يرغب الله في قلب سليم من الشرك و يتوجه اليه وحده.

لقد وفق الله ابن عطاء الله توفيقا شديدا عندما جعله يفتتح كتابه بهذه الحكمة الراقية فعلا. و هل سيذهب الى الله أحد العصاة الا ان علم او شعر بأن الله يحبه و لا يبالي بكل عصيانه! "يعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم, لا تقنطوا من رحمة الله, ان الله يغفر الذنوب جميعا, انه هو الغفور الرحيم". لقد وصلهم في قوله لهم "يعبادي" حتى من قبل ان يغفر لهم. أفلا تبصرون!

السكندري قد أوتي جوامع الكلم. و بالرغم من أن كتابه صغير في الظاهر, خاصة لو قارناه بموسوعات رجل مثل ابن عربي او الرومي, فان هذا الكتاب الصغير ظاهرا هو كبير جدا باطنا. الجوهرة لا تساوي عشر معشار معشار الجبل, و لكن جوهرة واحدة تشتري مئة جبل. فليست العبرة بالحجم الظاهر, و لكن العبرة بالمعنى الكامن. و أحسب انه لا توجد صغيرة و لا كبيرة في العرفان الا و قد أحصتها الحكم العطائية. فالاختلاف هو في أسلوب العرض, و عمق الكلمة. فالكلام الكثير قد يشغل عن المحبوب, و لذلك رأى السكندري أن يلخص الأمر في جوامع عميقة جميلة محكمة.

و كما لاحظنا ان الرومي يبدأ من الانسان الشاكي لالام الفراق, و أن الشيرازي يبدأ من الانسان الراغب في تجلي الله, و أن ابن عربي يبدأ من تفسير عمل الله, فان السكندري يبدأ من خلق الاستعداد في الانسان لقبول الله في حياته. فاذا أردنا أن نرتب أي هؤلاء أولى من الاخر بحسب المنطق الواقعي للأمور فان السكندري هو الأول, ثم, الرومي, ثم الشيرازي ثم ابن عربي. لان الاستعداد أولا, ثم الشعور بألم الفرقة ثانيا, و هذا هو الذي سيجعل النفس تسعى الى جبر هذا النقص عن طريق طلب تجلي الله, ثم أخيرا يجالس العارف ربه و يسأله عن تفسير أعماله كملك يجالس خليله الملك. "و جعلكم ملوكا" . و نستطيع أن نرى ترتيبا أخر كذلك, و لكن يظهر أن هذا هو الأقوم.

و نلاحظ أيضا أن الرومي يبدأ بأمر الناس بالاستماع اليه, و الشيرازي على اعتبار يبدأ بامر الناس أن يتوجهوا الى الله و على اعتبار الى نفسه, و ابن عربي يأمر الناس بلسان الحال أن يطلبوا التفسيرات العقلية لعمل الله, فان السكندري هو الوحيد الذي يبدأ من زرع الأمل في العاصي و توجيهه نحو الله مباشرة. فالرومي يرغب في أن يتواصل مع الناس, و كذلك الشيرازي, و ابن عربي يريد أن يفلسف اعمال الله, و اما السكندري فيرغب في ارشاد الناس الى الله خاصة العصاة و اهل الظلمات.

كل هؤلاء العارفين يكمل بعضهم بعضا. و لا غنى بأحدهما عن الاخر. فمنهم من يكتب الشعر المطول(الرومي), و منهم من يكتب الشعر المختصر نسبيا (الشيرازي) , و منهم من يكتب النثر المطول و المصاحب للشعر(ابن عربي), و منهم من يكتب النثر المختصر المحكم (السكندري). فالجمع بين هؤلاء الأربعة هو صنع لمائدة ملكية الهية عالية, عليها من كل شئ. و فيها لكل الأذواق, و لمختلف الدرجات.

و غايتهم ,أرضهم المقدسة, كلهم واحدة و هي :الله. العشق. التوحيد. السلام.

و محل اهتمامهم ايضا واحد و هو: القلب.

و طريقهم أيضا واحد و هو : ذكر الله و التفكر في الخلق .

(العارف الخامس مكمل الحلقة العرفانية)

لقد نسينا أن نذكر مكمل هؤلاء الأربعة, و يا خسارتنا اذا لم نضعه في حلقتهم, و هذا العارف هو "عمر الخيام" صاحب الرباعيات المشهورة. و لا أدري ان كانت كلمة "عارف" تنطبق عليه, خاصة لأنه يهزأ من كل ادعاء لمعرفة أمور الأزل و أسرار الخلق! فلنطلع على رباعيته الافتتاحية لنرى ما فيها, يقول:

" للأزل أسرار, لا انا أعلمها و لا أنت

و هذه الاحجية العويصة لا أنا أستطيع أن أفهمها و لا أنت

فأنا و أنت نخمن من وراء ستار

و متى أسدلت السجوف لا أنا أبقى و لا أنت "

الخيام يعلمنا أو بالأحرى يذكرنا أن كلامنا و بحوثنا الالهية و العرفانية مهما كانت عميقة و طويلة فانها في النهاية مجرد "حدس و تخمين". و كلام الخيام هذا ليس كلاما سلبيا يدعو الى الكف عن البحث و الكلام, اذ انه هو نفسه أطال الكلام في هذه الأمور, و في هذه الرباعية نفسها يقر في البداية بوجود الأزل, ووجود الأسرار, ووجود

الحجب, و هو نفسه يحاول أن يحدس و يخمن أيضا ليفسر سر الحياة أو على الأقل أن يخبرنا ما علينا أن نفعله اذا لم نعرف يقينا من أين أتينا أو الى أين سنذهب و نصيحته في هذا الشأن الأخير هي نصيحة لطيفة أحب أن أذكرها, يقول :عليك بابنة العنب (الخمر) اذا لم تعرف من أين أتيت, و عليك بالاستمتاع و الانغماس في الشهوات اذا لم تعرف مصيرك!

فالخيام ليس سلبيا يدعو الى الجهل, بل ان كلامه هذا يزرع فينا أمرين: أولا التواضع العميق, اذ ان التعالم و الاستغراق في وهم امتلاك الحقيقة المطلقة هو من اكبر اسباب دمار النفس و العقل و المجتمعات, و هل الطغيان الا بسبب امتلاك الحقيقة من قبل طرف يريد ان يفرض حقيقته هذه على أطراف "ما أريكم الا ما أرى و ما أهديكم الا سبيل الرشاد". و ثانيا دوام البحث و في كل مكان, فاذا كنا كلنا سنحدس و نخمن, فلا شك أن جمع اكبر عدد من التخمينات سيجعلنا أقرب الى المعرفة و اليقين من بناء نظرتنا على بضعة تخمينات, أليس كذلك.

بداية كل طلب للمعرفة هو الاعتراف بالجهل, تفريغ كأس القلب من المعتقدات السابقة. و هذا هو عين ما يفعله الخيام هنا. فهو يقول لك بلسان الحال: أنت لا تعرف شئ, و لا اباءك يعرفون شئ, ابدأ بنفسك من جديد.

و كل نظرية حتى تثبت صحتها يجب ان نضعها تحت اختبار معين, كما في البحوث العلمية التجريبية. و الخيام يعطينا هنا ما هي التجربة التي سوف تثبت لنا مقدار صحة نظرياتنا الالهية , يقول "متى ما أسدلت السجوف" أي عند الموت! و لعل هذا من أسرار التفسير الذي قال عن "اعبد ربك حتى يأتيك اليقين" أن اليقين هو الموت. فكل كلام قبل ذلك هو حدس و تخمين, قد يكون قويا مبني على قرائن, و قد يكون ضعيفا يعارض حقائق أو أشباه حقائق. على أية حال, نحن لا نعرف شئ. و هذا العرفان سلوى من سماء العقل, فتسلى حتى يأتي الموت ,و عندها اذا كان ثمة حياة اخرى فقد تعرف الحق, و ان لم يكن ثمة حياة اخرى فلن تعرف أنك كنت على باطل! و السلام.